روايات الهلال

يوسف أبو رية



عاشق الحى

العدد ٦٧٤ - فبراير ٢٠٠٥ - محرم ١٤٢٦ هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات ..

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

عاشق الحى

تأليف
يوسف أبو ريه

دار الهلال

الغلاف للفنان
عدلى رزق الله

«كل ما يريده العالم ويبحث عنه .

أصبح الآن غريبا عن قلبى»

هينـــه

١ - غياب فى التراب

-١-

● هكذا بدأت الحكاية ..

بإيجاز شديد ، كان دسوقى بدران يجلس على المائدة لتناول الغداء مع زوجته سميرة ، دخل عليهما قط أسود غريب ، لم يكن - أبدا - من القطط التى تتردد على شقتهما ، قفز إلى المائدة برشاقة ، وراح يحدق فى العينين المكحولتين للمرأة الشابة ، انتبه الزوج لهذا التحديق الدائم ، فقال له مستنكرا :

- إيه .. عجباك ؟؟ خدها .

فاختفت المرأة فى الحال ، وتلاشى الجسد الأسود للقط .

وترك الرجل وحيدا ، لا يقدر على رفع يده الممدودة باللقمة إلى فمه .

ودارت الحكاية من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، ومن حارة إلى حارة ، وتسربت عبر الأبواب التى لا تغلق ليل نهار ، والنوافذ التى تستقبل من الكلام أكثر مما تمنح من النور .

وككرة الثلج الشهيرة ، تضخمت وتضخمت حتى صارت مظلة كبيرة تنسدل على الأسطح ، وتسد عين الشمس المانحة للدفء والنور .

قالوا : كان يوم جمعة ، غادر دسوقى بدران بيته إلى الجامع ، وترك

سميرة تعقد شعرها فى كعكة كبيرة تحت منديلها الأحمر ، رفعت الفرش إلى السطح ليتقلب فى شمس الخريف الواهنة ، وضربت بالمنفضة المراتب ، والألحفة .

ومررت الفوطة على مرآة الدولاب وواجهته ليزداد بريقا فى العتمة الخفيفة لحجرة النوم ، ثم دخلت المطبخ لتعد لقمة الغداء من بقايا الأمس .

رأت القط الأسود يدخل عليها فجأة ، فتفلت فى عبها «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» .

وسألته : أنت مين ؟

فماء بدلال . ومسح شعره الخفيف بين سيقانها البارزة من تحت جلباب البيت الشفيف ، ولأنها تعتقد أن أرواح الأسلاف تسكن أجساد القطط ، وجهت سؤالها إلى هذا القط بالذات . فقد أدركت غربته ، ولفت انتباهها إليه اختلافه عن قطط الشوارع التى تجول حرة ، تدخل البيوت مترددة ، وحين ينهرها أحدهم بـ (بس) تغادر فى الحال ، وتظل واقفة على العتبة لا تتجاوزها ، وترضى بما يلقى إليها ، أما هذا الأسود فإنه مقتحم وجرئ ، دخل عليها ، ودار حول سيقانها ، نهرته مرة ، ومرة ، وهو لا يكف عن رفع عينيه إليها فى توسل .

وحين حطت جسدها الممتلئ على كرسى الانتريه ، سبقها إلى هناك، ووثب إلى حضنها ، عجزت عن زجره رغم نفور جسدها منه، كانت تهشه بخفة ليبعد عنها ويتشبث القط بها ، ويتمرغ فى حضنها ثم ينهض ليتشمم صدرها ، ويسحب بمخالبه (تقويرة) الجلباب إلى أسفل، ويلعق اهتزازات النهدين المضغوطين بالمشد .

ذهلت حين أحست باستجابة جسدها لمداعباته الجريئة «هذا فعل ذكر

ناضج ، يعى ما يفعل» .

وأعادت سؤالها إليه : أنت مين ؟

ماء بدلال ، ثم انسحب عن فخذيها ليلقى بجسده القوى إلى السجادة، ويتجه نحو الباب ، دفعه بيد واحدة ، وغادر الردهة ، بعد لحظة بالضبط دخل زوجها فى جلبابه الأبيض المزهر . كان يردد - فى سره - أدعية غامضة .

نظر جهة المائدة فوجدها فارغة ، وكانت من عادتها تجهيز الطعام قبل عودته من صلاة الجمعة ، فهى تتابع الصلاة من ميكروفون المسجد، وحين تسمع الشيخ يعلن القيام ، ترفع الأطباق إلى المائدة ، تعرف لهفته للقمة الجمعة بالذات لشعوره - فى دخيلة نفسه - بطاقته المهدرة على فراش البارحة ، وفى نفس الوقت يميل إلى غفوة القيلولة، فى أوانها ، لتعيد للبدن نشاطه ، ويسترد لياقته المعهودة .

- فين اللقمة ؟

وعادت من سرحاتها العميقة لتدرك وجوده .

- ما أعرفش إيه اللى سهانى .

جلسا على المائدة - كما ذكرت الحكاية الأولى - ثم جاءهما القط.

وهنا نضيف الحكاية الثانية : إن القط الأسود شعر بقدوم الزوج قبل ارتقائه السلم ، فغادر حجر الزوجة ليختفى لبعض الوقت على البسطة ، وراء السور ، وتابع دخول صاحب البيت ، وانصت لكلامه مع الزوجة حتى إذا أعدت المائدة ، دفع الباب المشرع قليلا ، ودخل خلسة ، قضى بعض الوقت أسفل الطاولة ، ثم قفز إلى الكرسى ، ومنه إلى منتصف

الطاولة ليتخذ مكانه ، كما ذكرت الحكاية الأولى .

الرجل المشغول بطعامه لم ينتبه إليه ، أول الأمر ، ولما حدث ذلك ، قال له ما قال ، لتختفى الزوجة الجميلة ومعها القط الأسود ، ولتتجمد يده باللقمة ما بين الطبق والفم ، بالضبط كما يحدث لشريط الأفلام ، يفاجئه العطل ، فتثبت الصورة على المشهد الأخير ، ولا يتزحزح أبدا إلى أن يتم إصلاحه .

● هل نبقى الصورة على حالها ؟

وما الفائدة من ذلك ؟ لابد لهذه البداية من نهاية .. يمكننا أن ندخل فى كثير من التفاصيل التى قصها الرواة ، ويمكننا أن نكتفى بأقوال العقلاء من أهل البلدة ، وأخيرا يمكننا أن نلجأ إلى تفسير يخصنا ،«لأننا نقر ونعترف بأن عصر الأساطير قد انقضى ، ويظللنا الآن عصر التفسير العلمى .

وللمكان هنا قوانينه الخاصة وقيمه وطقوسه .. فدسوقى وسميرة وكذلك القط ينتمون جميعا إلى بلدة اسمها (الجزيرة) لا يكف أهلها عن الثرثرة ، ولا تعترف بالحياة الخاصة ، هم يقرون ذلك مرة بصيغة المداعبة ومرة بطريقة ساخطة متبرمة ، حسب موقعك من الحادثة ذاتها ، فهم يقولون (بلدنا حبلت البغلة) والبغلة كائن خنثى كما هو معروف .

أو يقولون فى موقع آخر (اللى تنام مع زوجها بالليل يظهر حبلها الصبح) وهم ليسوا بحاجة للإخفاء ، فالأمور الجنسية بالذات موضع مفاخرة وفشخرة . الرجال يقصون فى حلقات الرجال روايات مستفيضة عن فحولتهم ، يقص أحدهم عن فعلته الجنسية كما يتحدث عن تناوله لوجبة دسمة ، والنساء يستعرضن شغف أزواجهن بهن ، حين يدلقن ماء

الحموم أمام الأبواب فى صباح الجمعة ، حتى المرأة التى - ربما - لم تحظ بالليلة مع زوجها ؛ تدلق ماء يفيض برغوة الصابون فلا يتهم زوجها بالتقصير أو تلوك الألسنة تبرم زوجها منها .

ويتأذى أهل الجزيرة ممن يغلق على نفسه بابه ، ويميل إلى حياة العزلة الغامضة .

ماذا يفعلون خلف الأبواب ؟

هناك سر ، أو مؤامرة تحاك ضدنا ، لأنه لا ينبغى غلق الباب والنافذة، فهم - كما يقولون عن أنفسهم - يعيشون فى بيوت من زجاج .

● عود إلى حكاية الزوج والزوجة والقط :

اختفاء فجائى ، ورجل وحيد ، يتلفت حوله مذهولا ، هبطت ذراعاه فى خدر إلى جانبيه ، وعاد بظهره إلى الوراء ، يرفع رأسه إلى السقف تارة ، ويعود به إلى أطباق المائدة تارة أخرى ، فتقع عيناه على الرغيف المهشم والملعقة الموضوعة على حافة الطبق ، الذى كاد يفرغ من الطعام .

هذه آثارها على المائدة بينما الكرسى فرغ من وجودها .. ها هو فى وحدته كأنما النور قد انطفأ دون سابق إنذار ، وتضاعف صمت البيت ، وتأكد حضور قطرات الماء الذى يتتابع من صنبور لم يغلق جيدا .

سحب شهيقا قويا ، امتلأت به رئتاه ، أراد القيام ، لم تسعفه قدماه، جرب أن يخرج صوتا من حلقه : يا سميرة ..

ربما أطلت بوجهها من وراء الستارة التى تحجز الردهة عن المطبخ ، ظلت الستارة على إنسدالها ، لم تطو حوافها ، ولم ترفع بيدها البيضاء التى تختنق بأساور ملونة رخيصة ، حاول مرة أخرى

- يا سميرة .

كان صوته مخنوقا فى حلقه ، كابوس حقيقى ، كانت هى التى توقظه من أشباحه المرعبة عندما يضرب بذراعيه فى فراغ الفراش ، يريد أن يطلق حنجرته من قبضة حديدية أحكمت السيطرة عليها ، يظل الصريخ حبيسا ، ولا ينم عنه غير همهمات تشبه التهيؤ للبكاء .

وفرت الدمعة من عينه ..

● **ماذا سيصنع بوحدته هذه ؟؟**

كيف طاوعته بهذه السهولة ؟ ومن يكون هذا القط الغريب الذى أطل عليهما فجأة من عالمه المجهول ؟ هل هى لحظة من التهيؤات الكاذبة سيفيق منها حين تنقضى ، أم ما حدث أمام عينيه واقعة حقيقية ؟

للقط أسرار لا ندركها ، نسمعها فى الحكايات القديمة ، أن تمتد إلى زماننا ، فهذا عجيب . أن تقع له هو بالذات فهذا هو الأعجب .

الباب لم يزل مشرعا ، تدخل منه أصوات الشارع ، وصيحات الجيران ، ونوافذ الحجرات مغلقة ، تحجز الضجيج والضوء .

استطاع أن يستند على الكراسى ، وزحف بقدمين ثقيلتين نحو باب الغرفة الأولى ، فتحه . كانت الأشياء خامدة ، مكنونة على نفسها ، لا تحفل بما حدث له ، تحدق فيه باستغراب ، وأحس بالإنفصال عنها كأنها لم تكن له منذ وقت قريب ، عاد بظهره ، وقبل أن يعيد غلق الباب نادى بصوت واهن: يا سميرة ..

فتح باب حجرة النوم ، أشياؤها مرتبة ، اللحاف مطوى فى مكانه ، والمخدة الطويلة ترفع على إمتدادها وسادتين صغيرتين مزخرفتين بورود ناحلة ، والدولاب يقف بصلابة ، محكم الغلق ، كجندى ربط أزرار معطفه

الثقيل على بدنه كله .

انتفض لبروز صورته فى مرآة التسريحة ، شعر لبرهة أنها تخرج إليه من داخلها ، ولكن الآخر - فى المرآة - انسحب مع عودته بظهره نحو الباب ، كان ينتوى إلقاء نظرة تحت السرير ، وأدرك أن هذا مجرد فعل مجنون ، فسميرة لا تتصرف هكذا أبدا ، فهى لا تميل إلى المداعبة، امرأة صارمة ، وقور ، لا تحب التخلع والدلع ، تقضى يومها ما بين ترتيب البيت ، من مسح ، وغسل ، ومع أذان الظهر تدخل المطبخ لتعد طعام الغداء ، يعود من مدرسته مرهقا ، فيجدها على كنبة الانتريه بانتظاره ، تشغل نفسها بكنفاة ، أو بتطريز مفرش جديد ، يراها فى جلبابها النظيف عاقدة شعرها فى منديل ملون تفوح من أعطافها رائحة الصابون المعطر . نظيفة دوما ، تعمل ما يطلب منها ، ولا تبادر بشئ ، هو الذى يتخذ القرار ، وهى تستجيب دون اعتراض ، لا تجادله ، وتكتفى بالقول : البيت بيتك واللى تؤمر به ياسى دسوقى .

لم يلحظ عليها سخطا أو تبرما من حياتهما الراسخة بعاداتها وثوابتها التى لا تتبدل ، لم يرها يوما - عند عودته - تطل من شباك ولا من بلكونة ، وعلاقتها بالجيران فى حدود الأدب واللياقة ، لا تندلق عليهم بل هم من يبادرون بزيارتها ، ورحلاتها الخارجية لا تتجاوز السوق أو زيارة أهلها فى الحى الآخر .

فمن يكون هذا الرقيع الذى تلبس جسد القط ليخطفها منه ويعجز عن منعه ؟

هيأ له الطريق وقال له : عجباك ؟؟ خدها .

لن تغفر له هذه الكلمة أبدا (خدها) كأنها لا تعنيه ، فرط فيها بكل

يسر .

ستصل إلى نتيجة خاطئة ، إنه ملها ، فدفعها إلى القط دفعا .

والرقيع الذى تقمص هيئة الحيوان ، حجته واضحة ، أنا لم أحصل عليها عنوة ، إنما بأمر منه ، هو الذى دعانى لأخذها .

الجرم جرمه ، والجناية جنايته ، فماذا اقترف لسانه ؟ هل يعيش فى الحقيقة أم الوهم ؟

وضرب رأسه فى حائط المطبخ ، بعد أن تأكد من اختفائها تماما ، وكرر الضرب مرة أخرى ، وأنهار جسده كله فى جعير لم يستطع السيطرة عليه .

سمع من جهة الباب كلمة : يا رب يا ساتر ..

فاغفل الرد ، وتكرر نداء الجار : يا أهل الدار .

واقتحم الردهة على إبراهيم الساكن فى الدور الأعلى ، كان يرفع بيد جريدة مطوية على حزم الفجل والجرجير ، وباليد الأخرى قرطاسا ورقيا برزت منه حبات برتقال خضراء .

– مالك يا دسوقى ؟

– ماليش .

– إزاى وأنا سامع جعيرك جايب لآخر الشارع .

وأصابه الرعب لما رأى نزيف الدم على الجبهة .

– الله أكبر ، وراسك مبطوحة .

– ما حدش له دخل بى .

– أوعى كدا ، ما عندكش بن والا إيه ؟

ودخل إلى رخامة المطبخ ليفتح علبة البن ، غرف منها بكفه بعد أن أطلق

يده من حملها ، ودس البن مكان الجرح الذى سال دمه فوق قصبة الأنف ، وسقطت منه قطرات على شاربه الكثيف ، ثم سحبه إلى كرسى الانتريه وأجلسه بالقوة ، ودسوقى يصيح فيه بغضب : سيبنى فى حالى الله لا يسيبك .

وهتف الأستاذ على إبراهيم نحو الغرف المغلقة .

– هاتى حتة قماش يا ست سميرة .

– سميرة ما راحت خلاص .

– اعوذ بالله .. راحت فين يا راجل ؟

– خطفها القط الأسود .

– لا إله إلا الله .. الراجل بيخرف .

– يا ست سميرة حتة قماشة صغيرة .

وظل مثبتا كفه فوق الجرح حتى يقطع النزيف .

– بقولك خطفها القط .

– قط إيه يا معلم الأجيال .

– كنت أنا وهى بنتغدى فى أمان الله دخل علينا قط أسود قعد بينا على الترابيزة وما رفعش عينه عنها ، قلت له عجباك ؟ خدها .. وما صدقش خبر هب .. واختفوا الإتنين .

رفع الأستاذ على يده عن الجرح ليحدق فى الوجه المذهول ، كان الألم الذى شوه وجه جاره يؤكد حكايته .

– استغفر الله العظيم .. يعملوها .

– مين دول ؟

– القطط .. ساكنها أرواح زينا ، ووقعت أنت يا شاطر فى إيد روح

فاجرة ، عجبته الولية ، ما صدق تديله الإذن ، وفص ملح وداب .

– والعمل ؟

– عمل ربنا .. لازم زيارة لمعبدهم القديم فى تل بسطة .

– قول كلام غير دا .

– دول حكموا بلدنا فى التاريخ القديم .

– قريت حاجة زى كدا .

– اخطف لقمة .. وكمل أنت غداك ، وآخر النهار نطلع على هناك ، يمكن نلاقى حل .

– أمانة ما تنقل الكلام دا لحد .

– عيب يا راجل .. سرك فى بير .

– ولا حتى للست زينب مراتك .

– ربنا يسهل .

● السر فى بير ..

قام عن المائدة ليغسل يده على الحوض ، دلك كفيه أكثر من مرة ، ليزيل رائحة السمك المشوى ، وحرك الفرشاة بالمعجون بين أسنانه ليسحب فتات الفجل والجرجير المتراكمة على ثناياه .

– يا ساتر على دى ريحة .

أشعل سيجارة كليو باترا ، ولم يلق عود الثقاب فى المنفضة التى سحبها معه إلى غرفة النوم ، وضعها على الكوميدنو ، ومدد طوله على السرير ، يشد نفس الدخان بشراهة ، ويحرك عود الثقاب بين أسنانه ليخرج الفتات . نادى على زوجته من الداخل : هات الشاى هنا يا زينب .

المرأة مذعورة منذ أخبرها بحكاية جاره الأستاذ دسوقى . كان قد

دخل عليها فوجدها قد أعدت أطباق السمك المشوى ، ووزعت الأرغفة على الطاولة التى تحلق حولها الأولاد يعاركون جوعهم بانتظار الأب .

قالت له مستنكرة : تأخرت على غير العادة .

رمى لفة الفجل والجرجير ، وقال ساخطا : حروح فين يعنى ؟ من الجامع للبيت .

– أنا سامعة الميكرفون وهو بيختم الصلاة .

– عديت على دسوقى .. الله ما يوريك .

– خير اللهم اجعله خير .

– الست سميرة خطفها القط منه .

فادار الأولاد وجوههم نحوه بحركة فجائية ، وصرخوا بصوت واحد : إيه !!

– بعدين .. بعدين .

– قط إيه يا راجل .

فكت الربطتين ، ودخلت بهما المطبخ لتفردهما على الطبق ، قالت وهى تفتح عليهما ماء الصنبور .

– تعال فهمنى .

أطل عليها برأسه ، وقال بصوت خفيض حتى لا يسمعه الأولاد .

– دا اللى حصل فعلا .. كانوا بيتغدوا ودخل عليهم قط أسود ما رفعش عينه عن الست سميرة ، ربنا ما هداش أخونا دسوقى قال له «عجباك ؟ خدها .» سمع كلامه فى الحال وخدها .

نثرت الماء عن الطبق وعصرت العيدان الريانة ، فاهتز ذراعها اللحيم، وترجرج ثدياها العامران البارزان كبلونتين كبيرتين مهيأتين للفرقعة عند

التلامس .

– تستاهل .

– حرام عليك .

– قلت لها أكتر من مرة شوفى علاج لحالتك .. ما هو الواحدة مننا ما تقدرش تعيش من غير ولد يونسها .

– ولد إيه وهباب إيه ؟

– صاحبك دسوقى مالوش فى الخلفة ، والبنت يانن عينى حتموت ع الواد ، جالها اللى تستحقه .

– إحنا فى إيه والا إيه ؟

– هو دا أس الموضوع ، كل المشايخ قالوا لها مافيكيش عيب خلى جوزك يشوف نفسه ، وهى مصرة «ما استغناش عنه أبدا .. «دا مهنينى» خليها قاعدة فى الشقة قرد قطع .

– حرام عليك .

وعاد إلى الطاولة ليلتحق بالأولاد الذين نسوا جوعهم وظلت عيونهم محدقة فى الفراغ ، فى رعب ، لا يعرفون له سببا . وقبل أن يمدوا أياديهم إلى الأرغفة ، صرخ الولد الصغير فجأة ، وقام منتفضا حتى سقط على السجادة مغشيا عليه .

كان القط قد دخل فى غفلة من الباب الموارب ، وتخفى تحت الطاولة ، يتشمم رائحة السمك ، ويتحين الفرصة للإنقضاض ، ظل يدور بين الأرجل فى حيرة حتى لامس ذيله ساق الولد الصغير .

لاحقه الأب قبل المروق إلى المطبخ ، وظل يطارده حتى أخرجه من الشقة ، وأغلق الباب بالترباس ، ثم عاد إلى الولد يهدهده : دا القط اللى

بتشوفه كل يوم .

رفعت الأم ذيل الجلباب لتمسح دموعه ، وترفعه مرة أخرى إلى الكرسى:

ما تخافش يا حبيبى .. إحنا معاك .

رشف الأستاذ على الشاى بتأن ، وأشعل سيجارته الثانية دون أن يرفع عينيه عن النافذة المسدل عليها ستارة قصيرة من الدانتيل الذى استخدم سابقا كداير للسرير .

– يا عينى على مدرس اللغة العربية .. بقى دسوقى ما يعرفش إن القطط دى حكمتنا فى يوم من الأيام .

واستعاد – كأستاذ للتاريخ – كل معلوماته عن عبادة القط التى عممت فى الحقب الفرعونية المتأخرة .

طبعا هناك القطط العادية ، تلك التى نراها ضالة فى الشوارع تقلب فى صناديق القمامة ، لا تجد من يطعمها ، ولا من يستضيفها فى بيته ، فالخوف منها راسخ . الجهلاء يعتقدون أنها مجرد أرواح ضالة، لها عالمها السرى ، الغامض ، فلا يأمنوا لها ، ولا يعتقدوا بها ، ولا يميلوا إلى اقتنائها على غير المعهود من الطبقات الراقية ، أو من يتشبه بها ، فإنهم يبتاعون أنواعا غريبة ، لا تنتمى لبيئاتنا ، ويفخرون باقتنائها كأنها علامة على الصعود الطبقى ، فهكذا يرون الأوربيين الذين نقلدهم فى كثير من الأمور ، ولكن الأوربى لم يقم المعابد للإله (بست) فى هذه المدينة التى لا تبعد عن بلدتنا بأكثر من العشر كيلو مترات ، ولم يقدموا لهم القرابين كأجدادنا فى الأسرة الواحدة والعشرين والثانية والعشرين من عصر اللوبيين الذين استوطنوا مصر ثم سيطروا على الحكم .

قام إلى رف الكتب ليسحب كتابا تهرأت صفحاته ، إنه كتاب شامل يسرد العصر الفرعونى بكامله ، ويؤرخ للأسرات التى حكمت مصر فى منف

وطيبة وبيوسطة .

وتوقف عند الصفحات التى تقص بداية حكم الغرباء الذين قدموا إلى مصر من جهة الغرب ، وعاشوا كجنود مرتزقة ، يدافعون عن الحكام فى عصور التدهور والسقوط ، وبعد ثلاثة أجيال - تماما كما حدث فى عصر المماليك - يستولون على الحكم بقيادة ششنق الأول ، ويؤسس أول حكومة من الأجانب فى مصر .

ويبقى على طيبة كعاصمة دينية ويؤسس عاصمته السياسية فى الجانب الشرقى من الدلتا ، ثم يدفع الشعب لعبادة آلهة محلية ، مثل (بست) التى نحتوها على هيئة قط أسود قوى البنيان حتى لتظن أنه أقرب إلى اللبؤة ، أو الفهد ، ويدع الإله الأكبر آمون إلاها لكل المصريين .

ثم جاء حكم ابنه سركون الثانى ، بعد نهضة سريعة ومؤقتة نجح الأب المؤسس فى إعادة سيطرة مصر على الشمال الشرقى (فلسطين) وعلى الجنوب فى بلاد النوبة والسودان ، ثم يحدث الإنحطاط مرة أخرى، فيتقلص حكم مصر ، وتقل مواردها مما اضطر سركون الثانى إلى تفكيك المعابد القديمة التى أسست فى عصور النهضة لبناء قصوره ، ومعابده ، لإلهته المحلية (بست) .

يسطو على معبد رعمسيس الثانى ليشيد معابده التى سرعان ما أطاحت بها يد البلى ، مما يعكس حالة الفقر والبؤس التى كانت تعيشها مصر فى تلك الحقبة .

- عبدناك يا قط فى زمن الخراب .

وتنهد من أعماق صدره ، دعس بقايا السيجارة فى المنفضة ، ورشف اخر قطرة شاى من الكوب البارد ، واستجاب لغفوة خاطفة ، بعد أن ألقى

بالكتاب إلى جانبه .

قام على صوت الميكرفون يرفع أذان العصر ، ولم يشعر بدخول زوجته التى فردت ردفيها الضخمين على كرسى التسريحة . كانت ترفع غطاء رأسها ، وتفك البنس عن شعرها الكثيف المتشابك كدغل خشن ، وتهيئ نفسها للصعود إلى جواره ، مستحمة ، نظيفة ، باسمة . فرفع بدنه إلى حافة الفراش قبل قدومها ، وقام ليغسل وجهه ويرتدى بدلته مستعدا للسفر مع زميله وجاره البائس ، لمح التعاسة على الوجه الدائرى السمين ، ولم يحفل بزمجرتها حين ترك لها الغرفة دون أن يحادثها ، كأنها لم تدخل عليه، ولم يرها قط .

- ما خدتش كفايتك من النوم .

- وراى مشوار .

- صاحب واجب يا خوى .

وتمددت بكتلتها العظيمة على الفراش وحيدة .

دخل بين زحام الأولاد الذين استحالوا إلى قطط يدورون فى حلقة حول الأخ الصغير ، يموءون له ، ويخربشونه بأصابع جعلوها شبيهة بمخالب القط .

والولد يزوم بدلع ، يحاول الخروج من الحلقة المحكمة فلايستطيع ، ضربهم الأستاذ على بالفوطة ، فتبعثروا فى المكان تاركين الولد الصغير الذى هرع إلى أبيه وأمسك بساقيه يستغيث به .

قال له الأب متبرما : وأنت خلاص .. بقيت نعة .

- أنا أهاف يابابا .

- رح نام مع أمك .

وخبطه بوهن على رأسه من الخلف .

● روح فى جسد قط :

«إن الموتى لايموتون ، إنهم أحياء بصور أخرى» أطلت هذه المقولة فجأة على دماغ الأستاذ دسوقى الذى قرأ الكثير من الشعر القديم ، والقليل من الشعر الحديث، وقلب صفحات وصفحات من النثر العربى فى أزهى عصوره، وكذا فى عصور انحطاطه المتأخرة ، وحفظ العديد من القصائد والأقوال المأثورة ، ترسب بعضها فى قاع النسيان ، وظل البعض طافحا على بركة الذاكرة الخامدة ، وكان كثيرا ما يفاجأ بنفسه – حين يكون فى حال الإنسجام – يردد أبياتا لجميل أو قيس ، بل لايأنف من ترديد مقاطع من أشعار الداعر عمر بن أبى ربيعة والفاسق (أبو نواس) .

– صحيح مين قال إنهم بيموتوا .

ورغم ضعف المقولة إلا أنها وجدت هوى فى نفسه ، فهو لايستبعد عليه شيئا ، ولا يستكثر عليه أمرا ، فكم شاغبه فى الدنيا ، ولا يريد الكف عن مناكفته بعد أن تمدد فى أعماق الأرض ، فيبعث روحه فى جسد قط أسود ، معجب بنفسه ، ليحرمنى منها ، بعد أن حرمه منها على وجه الأرض، كان ينازعه فى الغرام ، يأتى كل صباح بقميصه الأبيض الشفاف مفتوح الصدر ليبرز شعيرات صدره المشرعة بقوة ، يطلب من البقال المواجه لبيتها الجبن الرومى والعيش الفينو وربع كيلو الزيتون ، يقضم من الرغيف ويرنو إلى

وجهها الطالع مع الشمس من شرفة واحدة ، ودسوقى يقف عند سور بيته يرقب من بعيد ، ولا يدرى هل طلوعها من أجله أم من أجل صلاح المقتحم الجرىء ، ففى كل لحظة يشعر أنه لايردعه رادع ، ويستطيع أن يدخل عليها شقتها ليحظى بالقبلة والحضن بينما يكتفى دسوقى بالمشاهدة البعيدة وكتابة الرسائل الغرامية التى تفيض بالاستشهادات الشعرية العريقة .

بعد أن ينتهى من إفطاره ، يسحب الكرسى ، ودخان السيجارة ، ويركن ظهره على الحائط ليمكنه من رفع عينيه حين يحسو من كوب الشاى ، وينفث الدخان فى الهواء وفى وجهه المتخفى وراء جذع شجرة السنط .

وتخفت هواجسه عندما يستلم الرد على رسائله فيقول لنفسه «إنها تحبنى أنا ، والآخر سادر فى غندرته يظن أن الدنيا قد دانت له ويشيع بين الناس أنه معشوق البنات ، لاتصمد واحدة لمغازلته ، تذوب حين تتاح الفرصة بين ذراعيه» .

وحين تتأخر فى الاستجابة يظن أنها استسلمت له ، ويهجس «ما المانع أن تعجب بأشعارى ، وتشغف بجسد الآخر فى آن» .

ولم تنقطع ظنونه حتى دوى خبر مصرعه فى الحى ..

كان صلاح عائدا ذات ليلة على موتوسيكل من زيارة أخته المقيمة بالقرية القريبة ، انحرف السائق على طريق الأسفلت ليرفع مؤخر العجلة النارية ، ويطيح بصلاح من كرسيه الخلفى إلى شجرة العبل التى تلقته بقسوة لتحطم رأسه وأضلاعه فينزف المسكين دمه قبل الوصول إلى المستشفى .

هل يحزن عليه أم يفرح برحيله ؟

تلخبطت مشاعره ، وبرغم أنه سار فى جنازته ، وقضى واجب العزاء

لأسرته إلا أنه كان يختلس النظرات العميقة إلى أغوار ذاته ، فيضطرب حين يكتشف راحة الزوال لغريم كان يقض مضجعه ليلة بعد ليلة .

هل التقطت هذه المشاعر الخفية فى رسائله ؟ لايدرى هل وافقت مرغمة حين تقدم إلى أهلها لطلب يدها ، لأنها لم تجد فى طريقها غيره ؟؟ لايدرى.

ظلت غامضة ، ومغلقة على ذاتها ، تعمل المطلوب منها ، وكفى ، ولاتُظهر خطأ ، أى خطأ ، يستدعى العتاب أو اللوم ، وفى الفراش تمنحه نفسها دون تبرم ، ولم ترفض أبدا ، ولم تبد أى امتعاض ، حين ينتهى تستر نفسها ، وتدير له ظهرها ، وتستغرق فى النوم .

ويقضى الليل فى وساوس ، ويزداد تعلقه بها ، أحب غموضها ، ولم يزعجه قلة بوحها ، يدنو كلما بعدت ، فامتلأت حياته بها ، وظلّله العشق بخيمته فى هجيرة الحياة المرهقة .

- يا ترى أنت فين يا سميرة .

وجدد بكاءه حين وقعت عيناه على ملابسها المعلقة على الشماعة ، وفاح عطرها المستعمل الراكز فى الملابس «صلاح لا أحد غيره .. فعلها ، انتقاما منى ، ومن الموت الذى خطف شبابه ، ولم لا .. فكم من أرواح عادت على هيئة حيوان أو جنية أو طير .. ماذا نعرف نحن عن الكون الذى نعيش فيه؟».

● عفاريت الأم :

وتذكر أمه حين كانت تقص لجاراتها حكاياتها عن العفاريت بينما قلبه الصغير يتفتت بين أضلاعه من الخوف ، يكبح صرخته ، ويتلذذ بمتعة الحكى.

قالت رحمة الله عليها : كنا قد جهزنا العجين ، ونمنا ساعتين ثلاثة حتى يخمر ، وقبل التسبيح والأذان قمت أنا وأختى لنحضر الخبازة الساكنة فى حى البحر ، لم تكن الكهرباء قد دخلت بلدنا بعد ، وكان شتاء قارصا ، والمطر بدأ من عصرية اليوم لبعد العشاء ، فالأرض (ملبكة) طين ، ووحل ، رفعت أختى اللمبة الصاروخ على رأسها ، وخضنا من بركة لبركة حتى وصلنا بوابة المحطة الحديدية ، ونلاقى قدامنا حمار أبيض ، أبيض خالص يشبه هذه اللمبة (وأشارت إلى اللمبة النيون المعلقة بالسقف) لف حولنا ، وضرب بساقيه الخلفيتين الهواء ، ثم تقدم نحونا ، ونخر ، واطلق ريحا ، صوت دون رائحة ، وحك جلده فى هدومنا ، ثم راح ينهق عاليا ، فتذكرت عطية الذى دهسه قطار البضاعة وهو يرجع إلى الوراء ، فسال دمه على القضيب الحديد ، وعلى الأحجار السوداء ، قالت أختى وهى تتشبث بذراعى : دا عطية الخالق الناطق .

فتماسكت ، وتجرأت ، وضربته على بوزه ، وقلت له مويخة .

- عيب يا عطية احنا قرايب .

فأسقط رأسه بين ساقيه الأماميتين ، وهبطت أذناه إلى شدقيه ، وتحرك خزيانا نحو البوابة الحديدية .

وكنت أرى الدموع تسيل من عينيه على بياض وجهه الناصع . وقف مكان ضربة القطار ، وجمع ساقيه على المساحة التى سال عليها دمه ، وتلاشى .

قلت لأختى : عطية زى ما هو .. طيب حتى بعد ما مات .

● جنيات الماء :

انتبه إلى الطرق على الباب .

الأستاذ على فى كامل أبهته ينظر إليه باندهاش : لسه مالبستش !!

– حالا .. ادخل .

جلس على كرسى الانتريه بحذر ، بعد أن فك أزرار الجاكتة . شد ظهره إلى الوراء ، ولم يرد ملامسة المسند حتى لاتتكسر البدلة ليعيدها إلى شماعتها على حالها .

– عرفت تنام ؟

– أنام إيه بس .. أنا مخى مابطلش سرحان فى الدنيا وأحوالها .

– أحوال إيه ؟

– يا أخى أنا شاكك فى حاجة مشتتة عقلى .

– حاجة إيه ؟

– ليه مايكنش حد من الميتين جه سحبها من قدامى .

– وكان لازم يجى قط بالذات ؟

– ماهى الحيوانات أنت عارف جواها إيه غيرش الدنيا مليانة جن وعفاريت وجنيات وكائنات ما تظهرش إلا للى عايزاه يشوفها .

– كل شىء جايز .

– كان لى خال – الله يرحمه – اتجوز جنية .

– ازاى يعنى ؟

– أمى – الله يرحمها – كانت دايما تحكى لنا حكايته .. بتقول يا سيدى إنه كان ماشى فى ساعة متأخرة من الليل ، ولما قرب من الجميزة القديمة اللى كانت على الشط عند مدخل شارع العلواية .. فاكرها ؟

– طبعا .

– طلعت له من المية ، شعورها مدلية وراها لحد القدم من غير ما يظهر عليها بلل ، وكانت عريانة خالص ، وتقول لك يا سيدى كانت جميلة جمال يقول للقمر قوم وأنا اقعد مطرحك ، نادت عليه (ياعبدالله) وخالى ما صدق خبر ، قرب يبص فى وشها اللى زى صحن البنور ، ومرة واحدة مالقيش نفسه إلا وهو مشدود للميه ، وهى تسحب فيه لتحت لغاية ما وصل بلاد الجن .. قعد كتير ؟ يمكن أكثر من خمس سنين ، لما قلبه كله على مراته وعياله .

وتقول لك يا سيدى إنه ما بطلش يحكى عن العز اللى شافه مع الجنية ، أكل ومرعى وقلة صنعة ، مايقومش من فرشته خالص ، اللحمة على جميع أصنافها تجيله لغاية عنده ، والفاكهة اللى يعرفها واللى ما يعرفهاش ، طبق ورا طبق ، بيقول لك جنة بالضبط ، تأمر تجاب ، وفى الخمس سنين دول خلف من الجنية دى ولدين ، وتقول لك يا سيدى كانت لما تحب ترضعهم تجيبهم ورا ضهرها ، وتحدف لهم البزين ، كل واحد يمسك فردة ، وهات يا مص .

– خلص خلينا نلحق وقتنا .

– أنت مش مصدقنى .

– مصدقك .. بس أنا أحب أشوف الموضوع من الناحية العلمية .

– بلا علمية ، بلا بطيخ .. خدنا إيه من العلم ؟ أهو النهارده انكسرت كل قوانينه بالنسبة لى على الأقل ، قلت للقط ، خدها ، فخدها فى الحال ، حلها أنت علمياً بقى .

– يا أستاذ دسوقى أنا باشوفها من الناحية التاريخية ، الشراقوة

بلديتنا عبدوا القط فى العصور القديمة ، يعنى كان فى يوم من الأيام إله المنطقة دى . بعدها دخلنا فى عبادات كتيرة ، أنا سؤالى : هل هناك عودة لعبادات بادت ؟ أم أن إلاها من هذه الآلهة بعث ، فجاء ليعيث فسادا فى بلدنا .

– وزيارة المعبد حتحل لنا المشكلة دى ؟

– لازم نجرب كل حاجة علشان نرجع الست سميرة .

– أنا من إيدك دى لإيدك دى .

● زيارة المعبد :

وصلا قبل غروب الشمس بقليل ..

فى موقف سيارات الجزيرة انتظرا طويلا حتى تجمع ثلاثة زبائن غيرهما، وحين نزلا فى موقف الزقازيق لم يجدا من يوصلهما إلى هذا المكان المهجور ، فصاحب الحنطور لم يعجبه الأجر الذى اقترحاه ، فقررا الذهاب سيرا على الأقدام .

عبرا الكوبرى الجديد ، وقطعا شريطى السكة الحديد ، وسارا بمحاذاة ترعة الوادى حتى إذا وصلا كلية الزراعة اتجها إلى الطريق القبلى ، ليقطعا مسافة طويلة ، مرا خلالها على منطقة التجنيد ، ومستشفى الصدر ، وأطلت عليهما – فى غبشة الغروب – الأسلاك المرتفعة التى تحيط بتل بسطة .

دارا حول السور ليعثرا على ثغرة يمرقان منها للدخول بين التلال الترابية الموزعة على مساحة شاسعة ، حتى وصلا إلى بوابة مصنوعة من الصاج ، يقعد أمامها خفير يرفع شاربين مبرومين ، وبندقية صدئة ، ويلف عنقه الطويل بشملة من الصوف .

كان يشعل نارا صغيرة مد يديه فوقها ليدفىء أطرافه ويتابع الشاى الذى يغلى فى براد أسود ، يتابع الغليان ولا يستجيب لانتفاضات الغطاء الذى يطفح الشاى من تحته ، قالا له فى صوت واحد :

– السلام عليكم .

فرفع ذيل جلبابه الفضفاض ، وقام مرحبا ، فهو لم يعتد الزيارات المتأخرة ، آخر عهده بالبشر حين ينتهى أفندية الآثار من عملهم فى النهار .

يظلون من الصباح حتى قبل العصر بقليل يقلبون فى الأحجار ، ويحفرون الحفر العميقة ، يسحبون منها مساخيط صغيرة أو كبيرة عليها رسم الحيوان والطير ،يهللون لها ، ويسعدون بما جلبت أيديهم من الحفر الرطبة ، وينتشر بعضهم بين بقايا الجدران ، يطالعون الرسومات بعدسات كبيرة ، ويسجلون ما يطالعونه على ورق ، أو يسقطون عليه إضاءة خاطفة تلتقط الأشكال عبر آلة صغيرة لها عين ضيقة .

رد السلام بعد أن تنحنح طويلا ، وسلك غلق حنجرته الصامتة أكثر الوقت . عزم عليهما لشرب الشاى ، فشكراه ، وامتدحا كرمه وشهامته .

سأله الأستاذ على : الأخ شرقاوى طبعا ؟

– لع .. صعيدى .

– ولد عم يعنى .

– كل أولاد آدم اخوات .

– شوف يا ابن العم حندخل فى الموضوع خبط لزق .. أخونا الأستاذ دسوقى ، وأشار إليه (فوقف حزينا يسقط رأسه على كرافته عرسه) زاره

قط أسود وخطف منه مراته ، وأنا أخوك على إبراهيم مدرس تاريخ وأعرف إن قدماء المصريين بنوا معبداً للقط فى المكان دا ، لما كان عاصمة فى ذات يوم .

– ما بنامش الليل من صوتهم .. ليلاتى يصرخوا تحت الأرض ، والمفتش قال لى إن الكفار زمان عبدوهم ، وعملوا لهم أصنام ، واحد منها هناك فى المعبد الكبير .

وفتح الباب الصاج على آخره ، فدخلا وراءه ، وأشار إلى أطلاله البارزة بين تلال التراب .

– اللى هناك ده .. خش وشوف ، يمكن تلاقى اللى خطفها من بيناتهم .

– تيجى معانا .

– خلينى آخد بالى من الباب ليطب واحد من بتوع الآثار .

كانت الشمس قد سقطت أسفل الجدار ، أشاعت ذهبها فى بركة من الدماء فى سماء قليلة الغيوم ، ثم اختفت . تأبط دسوقى ذراع جاره ، ورددا معا الفاتحة ، قال له الأستاذ على .

– أنا أطلعت على الرسومات قبل ما أنزل .

– رسومات إيه ؟

– الشكل الأصلى للمكان دا .. كان فيه معبدين ، واحد كبير وواحد صغير ، ومافيش طوبة بنوها إلا وسحبوها من الآثار السابقة عليهم ، ولأن المبانى دى كانت فى زمن الانهيار ماصمدتش للزمن .

– يعنى ما نقدرش نقارنها بالكرنك ، ولا بالهرم مثلا .

– لا .. بون شاسع .. خلى بالك .

وكادت قدم دسوقى أن تنزلق فى حفرة بعد أن هبطا من التل فجأة ، كانت أعشاب برية تنبت أعلى التلال مما يدل على إهمالها ، أو أن أعمال الحفر لم تقربها بعد .

– على فكرة المنطقة دى لسه بخيرها ، ماحفروش فيها إلا أقل القليل هى ومنطقة (تانيس) اللى سماها العرب صان الحجر ، ودى تابعة لنا برضة.

– احنا جايين ندور على إيه بالظبط ؟

– واش عرفنى .. أنا قلت يمكن نلاقى طلسم أو سر أو نقابل حد من اخواننا القطط بظروفها يدلنا على الخطف مراتك .

– أهو .

– مين ؟؟

– الخالق الناطق هو .

نظر الأستاذ على إلى تمثال الإلهة (بست) القابعة على حجر أمام أطلال المعبد .

لم تحفل بقدومهما ، ظلت رافعة رأسها فى شموخ ، وحين اقتربا أكثر استحالت الشمخة إلى حالة امتعاض كأنما يريد التمثال أن يدير وجهه إلى الجهة الأخرى ولكن الحجر يكبله .

– طيب عرفت السر ؟

– سر إيه ؟

– يعنى أخينا إياه تقمص شكل الإلهة (بست) .

– إنت بتلمح لإيه ؟

– لصلاح .

- وإش عرفك بالحكاية دى ؟

- حد فى البلد ما يعرفهاش !! ثم إنك صدعت دماغى بيها أكتر من مرة.

- أعوذ بالله .. ماتنساش حاجة .

- المهم .. عاوزين نعرف خطفها وراح على فين .

وعادا إلى البوابة ، فوجدا الحارس يحتسى كوبه الثالث ، انتبه لعودتهما فقام لاستقبالهما .

- لقيتوا حاجة ؟

- أبدا .

- يا عم دول ما ينفعوش فى حاجة ، دى حجارة وأصنام كانت نفعت نفسها لما ربنا سخطهم .

بص بيجينى ناس كتير زى حالكم ، وما يلاقوش حل إلا عند الشيخ (أبو النجا) .

- ومين (أبو النجا) ده ؟

- علوانه معايا .. قبل ما ترجعوا بلدكم اخطفوا رجليكم لغاية الجامع الكبير ، هناك عند القناطر التسعة ، الكل عارفه ، تسألوا فين دار الشيخ (أبو النجا) ميت من يدلك .. وربنا معاكم ، ويفك ضيقتكم .

ضرب الأستاذ دسوقى يده فى جيب الجاكتة ، فسبقه الحارس ، وقبض على كفه بكلتا يديه .

- والله ما أنت مطلع حاجة ، بعمل لله ، توكلوا الليل كبس علينا . لكن الأستاذ دسوقى أصر فأخرج نصف الجنيه من المحفظة ، والقاه فى عب

الرجل .

عادا إلى طريق ترعة الوادى ليسيرا بمحاذاتها حتى تلتقى ببحر مويس بالقرب من القناطر التسعة ، وهناك سألا عن الشيخ (أبو النجا) فأشار صاحب محل العطارة إلى الزقاق الضيق الواقع خلف ميضة الجامع الكبير.

● سكاكين فى الجدار :

أرض مبلطة بحجر أسود ، وماء عطن يندفق فى مجرى من جهة الميضة، وباب مفتوح على مراحيض تفوح منها روائح البول والغائط ، وتتسرب من بين ضلفتيه أصوات هامسة تردد دعاء الوضوء .

سأل الأستاذ على إبراهيم صاحب فرشة ملابس الأطفال عن منزل الشيخ (أبو النجا) فرفع يده من حجره ، واجابه وهو يلوك لقمة طرية بين لثته الخالية من الأسنان : أول فتحة شمال .

دخلا معا تحت مظلة قديمة ومهترئة تتوزع أسفلها إشاربات ، وطرح ملونة ، ومناديل رأس مزينة بورود كبيرة ، رفعا عن وجهيهما أطراف الجلابيب المدلاة ومرت من أمامهما فتاة أصفر شعرها بفعل الاوكسجين ، ترفع مبخرة تهزها يمينا وشمالا وتديرها ببراعة أمام جسدها ، تدخل المحلات وتخرج منها برشاقة ، وتهتف بصوت مراهقة غضة .

- محلا صلاة النبى .

واستنشق الأستاذ دسوقى بدران ليطرد ما علق برئتيه من روائح كريهة ، ودنا من المكوجى الذى يميل على جلباب بلدى ، يضغط عليه بعزم قوته بمكواة حديدية ثقيلة .

– بيت الشيخ (أبو النجا) من هنا ؟

– أول باب على شمالك (ومسح وجهه بطرف الفانلة القطنية المبلولة) .

اقتحما عتمة الزقاق .

عند العتبة مرق قطان من بين سيقانهما ففزعا ، ورفعت أذرعتهما فى الهواء ليوازنا الجسدين قبل السقوط .

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

عبرا كومة الزبالة الطافحة من الصفيحة الصدئة ، وتحسسا درجات السلم تحت نور مصباح باهت يعلو باب شقة الدور الأرضى ، صفق الأستاذ على ابراهيم بكفيه .

– يارب يا ساتر .

وتقدم الأستاذ دسوقى ليضغط زر الجرس ، ومرق قط آخر هابطا درجات السلم العلوى ، فانحنى جانبا ليدعه يمر بسلام ، ضرب كتفه زجاج الشراعة التى فتحت عن وجه امرأة ملفوف بطرحة بيضاء معقودة تحت الذقن بإحكام .

– مساء الخير يا حاجة .

– يسعد مساك .

– بنسأل عن شقة الشيخ .

– حضراتكم مين ؟

– أنا دسوقى ومعى الأستاذ على إبراهيم .

– عاوزينه فى حاجة يعنى ؟

– والله .. دلنا عليه الأخ الصعيدى حارس معبد تل بسطة .

– تفضلوا ..

فتحت لهما الباب فدخلا الصالة بعد أن أضاءت لمبة السقف . جلسا سويا على الكنبة يحدقان فى المكان ، بينما اختفت المرأة وراء الستارة التى تفصل الصالة عن الحجرات الداخلية .

– أظن إن دى صورته .

أشار الأستاذ على إلى وجه ملتح يسقط على رأسه غطاء أبيض .

– ودى عايزه فكاكة .. أكيد هو .

ومرر عينيه إلى صور أخرى لحيوانات تحلق فى الفضاء بأجنحة كبيرة ، ورجال تتشابه سيماؤها مع وجه الشيخ ، وآخرين يرفعون سيوفا عريضة ، ويتمنطقون بأحزمة عليها خناجر ذات أطراف حادة ، ومعقوفة .

رفعت المرأة شقا من قماش الستارة فبانت فى وقفتها تضع عباءة سوداء سابغة على جسدها الفاره وبنيتها السامقة . قالت :

– تفضلوا .

سار الأستاذ على فى المقدمة يسحب يد جاره وزميل الدراسة ، ويحدق فى الردفين العاليين اللذين يتبادلان الصعود والهبوط تحت العباءة بكل رسوخ واتزان .

مرا خلال الطرقة على باب المطبخ والحمام ، ثم دخلت المرأة بهما إلى حجرة فارغة ليس بها غير فرشة أرضية ، يتمدد عليها جسد نحيل ، كان يغطى وجهه شال أبيض خفيف ، برزت منه شعيرات اللحية الكثيفة ، ويعقد يديه على صدره ، أو يفردهما تحت الملاءة ذات المربعات أو يخرجهما ليفردهما على الآخر ، وهو يئن تحت ثقل أنفاسه المجهدة .

طلبت المرأة أن يدنو أحدهما من أذن الشيخ ، وكانت سبقتهما لتجلس مربعة على رأسه تتحكم فى يده التى يطوحها بلا إرادة منه .

سألت المرأة : إيه الموضوع ؟

وتقدم الأستاذ على ليميل على الأذن المخفية تحت الشال .

– أخونا دسوقى أستاذ اللغة العربية ، صلى الجمعة ، ورجع لبيته ، وهو بياكل مع مراته ، طلع لهم قط أسود ماشفهوش قبل كده يدخل شقته ، نط القط وقعد فوق الترابيزة ، يحملق فى وش الست سميرة ، الأستاذ دسوقى قال له من باب الهزار (عاجباك .. خدها) وفعلا خدها .

ومالت المرأة على أذن الشيخ صائحة : القط خد مرات أخينا اللى واقف قدامك .. إيه العمل ؟

فزمجر الشيخ ، وتلوى جسده الصغير فوق الفرشة ، وصرخ .

– آه .. اسم أمها إيه ؟

فاستجاب دسوقى بسرعة .

– هانم .

– واسم أبوها ؟

– عبدالغنى خاطر .

– واسم أمك إيه ؟

تلفت حوله فى حرج ، وقال بصوت هامس وهو يبلع ريقه .

– سرية .

– واسم أبوك ، وجدك ؟

– بدران الشوادفى .

قام ، وقعد ، وسال الزبد من شدقيه بعد أن سقط الشال عن وجهه ، وبانت عيناه المكحولتان وشاربه الحليق ، وصرخ مرة أخرى .

– آه ..

ثم سحب سكينا من تحت الفرشة ، ورشقه فى الحائط ، ودخل النصل بقوة دون أن يهتز للحظة .

– هى فين ؟

قام ، وقعد ، ارغى وأزبد .

– رجعوها .

وراح يضرب الهواء بيديه ، ثم بدا كأنما تشبث بخناق أحدهم ، وضغط عليه ، كان وجهه ينز عرقا غزيرا ، وسال الكحل على صدغيه ، وتخلل الشعيرات المصبوغة بالحناء .

– مش حسيبك .. خفيتها فين ؟

خرج من حلقه هواء صاخب ، والمرأة مالت عليه لتسند ظهره ، ومسحت وجهه بمنديل مكور فى يدها .

– بالراحة يا مولانا .. حيسمع الكلام .

وصرخ الشيخ حتى ملأ صوته جنبات الحجرة .

– هى فين ؟؟ مافيش مجال للإنكار .

وانتفض جسده كأن شيئا ما أفلت منه ، فأراد القيام ليلحق به ، فتشبثت المرأة بكتفيه .

– ما فيش داعى .. حيقولك .

أخذته رجفة ، فانهار على الفرشة ، وبركت المرأة على صدره ، ومالت بأذنها على شفتيه ، تهتف به .

– قول قبل ما يهرب .

والشيخ يموء ، ويردد كلاما غير واضح ، وهى تستجيب له بحنان ،

وتملس بيديها القويتن على سائر جسده .

– طيب .. طيب خلاص .

ثم هدأ كل شيء ، وارتاح الأستاذ دسوقى فى وقفته المضطربة ، وقام الأستاذ على من جلسته المرهقة ليستند على جاره ، فاتخذت المرأة مكانه فوق رأس الشيخ ، كانت تمسح وجهه ، وتفرد يديه إلى أعلى وإلى أسفل حتى إذا اطمأنت إلى سكون روحه الجامحة ، أسدلت الشال على وجهه ، وعاد إلى حالته الأولى .

نادت عليهما ليخرجا إلى الصالة ..

– تسمحوا .

قالت لهما بكل أدب : تفضلوا .

وبدأت الكلام بهدوء ، وثقة : كان الشيخ يروح فيها ..

ربنا ستر .

– كتر ألف خيره .

– القط عنيد ، ومكانش عايز يعترف .

– المهم يكون ربنا هداه .

– يعنى .. قال نص الحقيقة .

– والباقى ؟؟

– عليكم بالشيخ هداية .

– ونلاقيه فين الشيخ هداية ؟

– عنوانه ما يتوهش .. كل جمعة يقعد على الباب الرئيسى لسيدنا الحسين . قبل الصلاة بشوية .

– ونعرفه إزاى ؟

– يعنى نفهم إيه من كل الموضوع ؟ (سأل دسوقى متبرما) .

– اللى خطف مراتك صحيح قط ، واعترف للشيخ بس ما يقدرش يرجعها لك إلا بإذن من الشيخ هداية .

– يا غلبى .

– الصبر جميل .

ضرب الأستاذ على يده فى جيبه واخرج عدة جنيهات دسها فى يد المرأة، حدقت المرأة طويلاً ، وعلت الكآبة وجهها ، وسقط عنها فجأة قناع الرضى .

– ما ينفعوش خالص إيدك على عشرة جنيه .

– عشرة إيه !! (قال الأستاذ دسوقى وهو يمنع نفسه من البصق) .

– الراجل كان حيروح فيها ..

– يروح فى إيه يا ولية .

– مستخسر فى مراتك عشرة جنيه ؟

– اديله عينيه لو كنت حطلع بيها من هنا .. تصبحى على خير يا مولاتى .

وشدا الباب وراءهما ، والمرأة تشدهما من أكمامها تريد استكمال المبلغ

– حتكسرى البدلة .. كسر ضلوع .

فى القطار .. رآه

قطار الشرق البطىء ، فى ذلك الصباح الباكر ، من الجمعة التالية لواقعة الإختفاء ، مرت الأيام ثقيلة على قلب الأستاذ دسوقى ، يواجه الزملاء فى المدرسة ليجيب عن سؤال دهشتهم .

– معقول لسه فيه قطط تخطف إنسية ؟

– اللى حصل .. وربنا قادر على قطع لسانى إن كنت باكذب .

– حاش لله يا أستاذ دسوقى .. لكن الموضوع غريب .

ويواجه جيران الحى ، والشارع .

– ربنا يرد غيبتها يا أستاذ .

– قادر وكريم .

– ربنا على المفترى .

– سبحانه .

– مالقاش غير الست سميرة الطيبة اللى لسانها ينقط عسل .

– ابتلاء من عند الله .

– إلهى ترجع لك بالسلامة .

– إن شاء الله .

ثم يدخل شقته ليتنقل بين جدرانها وحيداً ، يعد لقمته إذا اشتد عليه

الجوع ، يتبلغ بلقيمات قليلة ، ولم يشعل لنفسه ناراً قط ، فهزل جسمه ، وهبطت أكتافه إلى أسفل ، والحلتان اللتان يبدلهما فى مشاوير العمل أو مشاوير السفر اتسقا عليه ، وانسحب كرشه قليلاً إلى الداخل ، وكان كلما تحرك فى ذهابه أو إيابه يجر ساقيه جراً ، فهو الآن يجهد فى صعود السلم، أو السير فى طريق المدرسة ، أو فى قضاء المشاوير البسيطة حيث يبتاع حاجياته من البقال أو من السوق .

أراد الأهل أن يحشروا أنوفهم فى شأنه ، فردهم جميعاً ، قالوا : هذه الصبية تقيم معك لترعى أمورك حتى تعود سميرة ، فرفض بشدة ، لأنه فى كل عودة يفتح الباب ويظن أنه سيجدها قاعدة على الكنبة ، أو تصيح عليه من المطبخ : رجعت يا دسوقى ؟

ويطرق أنفه فوح أطباقها الشهية ، ويضربه الإحباط على يافوخه ، فالشقة لم تزل فى سكونها الكئيب ، لا نفس ، لانأمة ، لا علامة على وجودها الحى ، فينادى عليها : سميرة .

ينداح صوته فى الفراغ ، ويعود إليه فى حلقات ، تحيط به ، وتكبل سيقانه فينهار على أول مقعد .

وهاهو فى هذا الصباح الباكر ، يسعى وراء بصيص النور يبحث عن حل، مع زميله الأستاذ على ابراهيم الذى ما أن وصل القطار محطة الجزيرة، وصعدا إليه مع زحام الذاهبين إلى عملهم فى الزقازيق أو فى القاهرة ، وعثرا على مقعدين خشبيين فارغين اختار الأستاذ على جهة الشباك ، وأمال رأسه ناحية الجدار الحديدى ، وراح فى نوم عميق تاركاً دسوقى يحدق فى وجوه الركاب تارة ، وفى سقف القطار تارة ، لم يغفل له

جفن منذ البارحة بل منذ اختفاء زوجته ، فالنوم يأتيه خطفاً ، دون عمق ، سميرة حاضرة معه كل حين ، وإذا أخذته سنة من نوم يفزع على مواء خفى لقطط ، لا وجود لها بالمكان .

وفى الليلة التالية لاختفائها ، أخذ الكابوس بخناقه ، على هيئة قط أسود كبير ، بحجم التمثال الذى رآه فى تل بسطة ، رآه ينفك من تكبيلة الحجر الجامد ، وتدب فيه الروح فجأة ليهبط عن قاعدته الجرانيتية ، ويذوب فى سواده ، مع سواد ليل غطيس ، لا تبرق فيه غير عينين تقدحان الشرر ، وأنياب بيضاء تضىء ظلمة الفم الشرس . ظل القط ، يدنو منه ، وكلما ازداد قرباً تضاعف حجمه حتى تمكن من عنقه ، فضرب فيه مخالبه الحادة . المدهش فى الأمر أن دسوقى لم يقاوم . نام على ظهره مستسلماً . مكتفياً بترديد جملة وحيدة : اشهد أن لا إله إلا الله .

واتسعت عينا القط حتى ملأت الكون كله . عينان غاضبتان تسيطر عليهما الرغبة فى الإنتقام ، وحين أراد القط الوصول بأنيابه الحادة إلى أنفه ، صرخ ، وقام منتفضاً ، وظل لفترة فى ظلام الغرفة ، لا يستوعب المكان ، ولا يدرك ما حدث .

تحسس أنفه بأطراف أصابعه ، لم يجد أثراً للزوجة الدم ، ورفع راحته ليمسح العرق الغزير عن جبهته ، بل ريقه من ماء القلة الموضوعة فى الصينية ، وردد الشهادتين . احكم غلق الحجرة ، وتمدد مرة أخرى فى فراشه ، واستسلم للنهنهة التى مسحت عن صدره الهم ، ورفعت عنه حجر الطاحون الراكز على قلبه ، وارتاح للغفوة الطيبة الهادئة التى أخذته بحنو ولطف مع تسبيحة الفجر وشقشقة الطير الذى بدأ الإستعداد للخروج من وكناته .

كثير من الركاب أمالوا رؤوسهم إلى الوراء ليتمكنوا من النعاس وكثير منهم لم يستطع السيطرة على رأسه الذى يتطوح يميناً وشمالاً أو يسقط منهم على صدورهم . كأنه المستيقظ الوحيد بين مدينة من النوام .

ورآه قادماً نحوه من الباب الذى يحجز العربات بعضها عن البعض ، يرتدى نفس القميص الشفاف ، وبنفس تسريحة الشعر التى كانت توغر صدره ، لأنها تشعره بالتفوق عليه ، على جانب فمه سيجارة يحاول إشعالها بعود ثقاب ، تكررانطفاؤه من أثر الهواء الذى يندفع من النوافذ المفتوحة .

اقشعر جسده كله ، وانخرس لسانه .

لا يدرى أهى المفاجأة ، أم الحقد ، أم الذل والهوان فى مواجهة سطوة الآخر وإحساسه النرجسى بنفسه ؟

كان يقترب نحوه محدقاً فى وجهه دون أن يرجف له جفن .

ودسوقى ينظر إليه بإنكسار بينما مرجل الرصاص يغلى فى قلبه ، هل يتحداه ؟ هل جاء لنهايته ؟ أم أنه قد بعث على هيئته الأولى ليؤكد له أنه هو الذى خطفها ، لا أحد غيره ؟ هل يوقظ زميله علي ؟ «هذا شأنى الخاص ، لابد وأن اضع له نهاية .. لا دخل لعلى فى ذلك .. الثأر ثأرى أنا .. فانهض لتثأر لشرفك..» .

مر بين صفى الكراسى ، ولامست فخذه كتف الأستاذ دسوقى ، وتلقى أنفه رائحة عطره التى يحفظها عن ظهر قلب ، لم يحفل به صلاح عند مروره ، نفث دخان سيجارته بإهمال ، وفتح الباب الآخر ليمرق إلى العربة التالية .

حينئذ لم يجد الأستاذ دسوقى بداً من ملاحقته .. سار وراءه يتتبع خطاه ، فتح الباب بدوره ، وداس على الأرضية الحديدية التى تتلامس بين العربتين ، وامتلأ رأسه بضجيج العجلات وصك الباب المفتوح على دورة مياه عفنة ، فتح الباب الآخر ، فهاله ملامح الوجوه المستسلمة ، رؤوس بلا قسمات ، كلها متشابهة ، لا يميزها غير أغطية الرأس ، من الشيلان والطواقى والعمم والطرح والشيشان.

دار بناظريه فى أنحاء العربة لم يجد له أثراً بين الوجوه النائمة ، عاد بظهره لينظر فى دورة المياه ، وجدها فارغة تنكفىء على صدئها ، وصنبورها الجاف الذى لا يقطر ماء .

عاد إلى العربة مرة أخرى ، وجوه نائمة ، هنا ، ووجوه نائمة هناك ، وحده هو الجسد المتحرك ، وذلك الشبح الذى أطل عليه من الماضى على هيئة غريم لا يكف عن الإنتقام من الموت ، من الحب المغدور ، من الزوج الذى حظى بفتاة أحلامه .

كل هذا من أجل شباب ولى قبل الأوان ، زهرة العمر المقصوف يتجدد نسغها ، وتبعثه من جديد ، بصورته الأولى أو بصورة قط عنيد ، تقمص روحه ، ولكن إلى متى يا صلاح ؟ لكل أمر نهاية ..

سأطوف الدنيا من أجل ابقائك فى تربتك لا تخرج منها لتؤذى الأحياء فى قلوبهم ، عليك أن ترضى بمصيرك ، ولا تتقافز حولى بصور مختلفة ، هى لى ، حتى لو قضت محكمة الشياطين الذين تنتمى إليهم بغير ذلك .

عاد إلى كرسيه مهدوداً ، يعيد التفكير فى ماضيه ومستقبله على إيقاع

من غطيط خفيف ، ينطلق من حلق الأستاذ على .

عقد يديه على صدره ، فرد ساقيه على الآخر ، وأخذ يفكر فى سميرة ، جارته التى أحبها طفلة بضفيرتين ، وصبية بشعر منسدل على كتفيها ، وفتاة تسقط القصة على جبهتها ، وتجعل من شعرها ذيل حصان ، يمرح على مريلة المدرسة ، سميرة التى تعلق بالشعر العذرى من أجلها فحفظ الكثير من أبيات جميل وكثير وقيس ، ولم يمل إلى شعر ابن أبى ربيعة ولا إلى أبى نواس لحسيتهما البالغة . كم من رسائل ؟ وكم من زهور مصبرة حملتها أوراق الكتب ؟

البنت الخجول التى يزهو الورد على وجنيتها لمجرد القرب منها ، كان يلهث حين يبادلها الجمل القصيرة المهشمة ، وهما فى طريق المدرسة .

كان أولاد الحى جميعاً ينافسونه فى عشقها حتى هبط عليهم هذا الشاب الذى يكبرهم كثيراً ، جاء من حيه البعيد من أجلها ، وكان مقتحماً جداً بالقياس لهم ، فيهجم عليها ، ويحادثها عنوة ليقبض على كفها ، وهى - المسكينة - تنتفض متعثرة فى خجلها «وأنا لا استطيع مقاومته ، لأنه لا يحفل بى بالمرة ، ولا يرانى ، كم من مرة قتلته فى أحلامى ، وهو يهزأ بى كلما قضيت عليه ، يبعث من جديد ، ويطلق الضحكات الساخرة..» .

- بتحبينى يا سميرة ؟؟

- يوه يا دسوقى .. ودا سؤال !!

- يعنى مبسوطة من العيشة معايا ؟

- وأنا اشتكيت لك من حاجة ؟

صامتة دوماً ، هادئة ، لا تبوح بسهولة ، لم تبادر يوماً فى الإندفاع إليه، هو الذى يبدأ ، وهو الذى ينهى الأمر ، وهى تعطى باستسلام ، لا بهجة ، ولا تبرم . أمور طبيعية تمارسها بحكم الاعتياد ، لا الإحتياج ، لا تشتعل معه ، ولا تصل بالأمور إلى ذروتها ، كل شىء بقدر ، كأنها حسبة أمرت بها كحق شرعى ، لا أكثر ، ولا أقل ، هو يريد عشقاً عنيفاً يدفعها للتلاشى معه، الرضى بالمقدر والمكتوب . هذه هى حكمتها الأزلية ، وهذا ما يجعله فى عطش دائم إليها ، كما يجعله فى حال من الشك ، فهى تعطى بربع طاقتها ، والباقى ربما يكون هناك للحبيب الذى لم تحظ به ، وخطفه الموت منها . لا راد لقضاء الله . كان يسمعها تهمس بها حين تتأكد من وحدتها ، وتظن أنه لا يسمعها .

وسحبه النوم بهدوء إلى بئره العميقة ، وهناك فى القاع المظلم رآه .

يشق سطح الماء ، ويضرب بيديه ليحافظ على إتزانه . ولتساعده الضربات من الإقتراب نحوه .

الآن صار الوجه فى الوجه ، وجهان يتألمان من جذوة الحقد ، الذى مسخ الملامح ، وكراهية عميقة لا يدرى دسوقى أنها مخزونة فى جزء غامض من بدنه ، مد كل منهما قبضته نحو عنق الآخر ، سبقه صلاح فى الإلتفاف حوله، وإحكام السبابة والإبهام ، وتمكن من العنق تماماً ، وبدأ الضغط يتضاعف والرأس يترنح ، والجسم ينحل حتى سقط الذراعان إلى أسفل فى استرخاء ، وحين شعر بصعود الروح إلى الحلق وكادت تلفظ خارج البدن ، انتفض بسائر الجسد ، وتملص الرأس بين الأصبعين القابضين عليه بقسوة، رفس بساقيه ، وضرب بذراعيه الهواء ، وتنفس بعمق حتى سقط بصره على

الوجه النائم أمامه ، ثم انتبه ليد صديقه على تهزه .

- دسوقى .. اصحى .

- ياه ..

- فيه إيه ؟

- أبداً .. كابوس لعين (وخفف الرابطة القابضة على عنقه ، وحرك ياقة القميص المنشاة ، وفك الزرار الأخير ليسمح لرئتيه بالتنفس العميق) .

- صلاح تانى !!

- فيه غيره .. عدى علىّ وأنت نايم .

- تهيؤات يا صديقى .

- إزاى !! أنا مشيت وراه لحد العربية التانية ، لكن الجبان اختفى .

- والله أنا احترت فى أمرك .

- أنت مؤمن بالأرواح .. ولا لأ ؟؟

- «قل الروح من أمر ربى» .

- والجن مذكور فى القرآن ولا لأ ؟

- له سورة كاملة .

- خلاص ماتشكش فى كلامى وتقول تهيؤات .

- فيه جن وعفاريت ، لكن مالقيوش غير القطط يظهروا بأشكالها ، طب كانوا طلعوا على شكل أسود أو نمور أو فهود .

- ما تفرقش .

- طب اسمع منى الحكاية دى علشان اثبت لك إنهم ما يملكوش من أمرهم شيئا .. رحت مرة أعزى فى والد واحد قريب زينب من بعيد ، وكان

من الأعيان ، فنصبوا له شادر كبير ، وجابوا له مقرىء مشهور من الإذاعة اظنه الشعشاعى المهم .. جات قعدتى جنب واحد معلم كبير ، كان لابس جلابية صوف فخمة جداً ، وحاطط على كتفه عباية جوخ سودة ، وتلفيعة حرير نازلة على العمة . كان الجو برد خالص ، والراجل مكلفت نفسه على الآخر .

وضربت عينى عليه من فوق لتحت ، ووقفت عند ديل الجلابية المفرود على الأرض وألاقى قط رمادى معفلك ، سحب ورا زبالة الشارع المنصوب فيه الشادر ، دخل براسه من تحت الفراشة ، خلص على شوك السمك المتكوم جنب ديل الجلابية ، والظاهر لقى شوك تانى غطت عليه الجلابية ، فدفس راسه بين رجلين المعلم ، وسحب جسمه كله ، وساب حتة هن ديله بره ، كانت بتلعب زى راس التعبان ، وأنا - ربك والحق - ماقدرتش أقاوم ، رفعت رجلى على الكعب ، ورحت ضاغط بالبوز على حتة الديل ، وهووب ، القط صرخ وشبط في لباس الراجل من تحت ، والمعلم بكل هيلمانه اتحدف لورا ، وتشقلب على ضهره ، وانكشف حاله ، وأخوك قاعد كأنه ما عملش حاجة - مين الوحيد اللى راصد حركتى ؟ المقرىء ، كركع فى المكيرفون غصب عنه لما شاف الناس بتجرى على بره ، فاكر إن فيه زلزال، لأن وقعة الرجل نزلت على عمود الشادر اللى ورا ضهره ، فانهز الشادر كله ، ولمض السقف قعدت تضرب فى بعضها ، أدى قط من القطط قدر يعمل لى حاجة ؟ أبداً . دا حتى ما قدرش يتنبأ باللى حصل ، وخد روحه وقال يا فكيك .

انعشت الحكاية وجه الاستاذ دسوقى ، وانشرح قلبه قليلاً ، وقد بان ذلك

على قسمات وجهه الباسم .

- دا أنت قلبك ميت يا على .

- لا ميت ولا حاجة . أنا اميل للتفكير العلمى غيرش إنى بأسيرك فى تفكيرك ، لأنك فى أزمة حقيقية ، والغرقان بيتعلق بقشاية .

- يعنى واخدنى على قد عقلى .

- ما تفهمش الموضوع غلط .. أنا متعاطف معاك إنسانياً .

- كتر ألف خيرك .

- واجب الزمالة ، والجيرة ، وصداقة العمر يا دسوقى .

- كتر ألف خيرك .

- ثم إنى باكره القطط عمى .

- ومين سمعك يا اخوى .. أنا ماطقش مواهم فى الشارع ، ولا صوت الإستغاثة من قطة صغيرة تركن تحت شباكى ، تموء بإلحاح طول الليل ، لا تهمد ، ولا تخليك تنام ، يا أخى أنا حتى ما أحبش ابص فى عينيهم ، ولو فى عز الضهر .

- ويكفيك الشر يا أخوى لما يجى موسم .. بتسموه إيه بالفصحى ؟

- السفاد .

- أيوه أيام السفاد ، لعنة ، يقعدوا ينادوا على بعض لغاية ما يحصل النصيب ، ولقاؤهم الجنسى عنيف ، زى ما يكون خناقة ، لا فيه مداعبة ولا تحنين ، بقولك خناقة بين عدوين ، ما تحسش بذرة حب .

- ويقول لك إن عضو القط عامل زى الشوكة ، سنانه بالعكس ، وساعة ما يولجه ، ويتم المراد ، يجى يسحبه تقف الأسنان وتهتك فى فرج القطة

من الأعيان ، فنصبوا له شادر كبير ، وجابوا له مقرىء مشهور من الإذاعة اظنه الشعشاعى المهم .. جات قعدتى جنب واحد معلم كبير ، كان لابس جلابية صوف فخمة جداً ، وحاطط على كتفه عباية جوخ سودة ، وتلفيعة حرير نازلة على العمة . كان الجو برد خالص ، والراجل مكلفت نفسه على الآخر .

وضربت عينى عليه من فوق لتحت ، ووقفت عند ديل الجلابية المفرود على الأرض وألاقى قط رمادى معفلك ، سحب ورا زبالة الشارع المنصوب فيه الشادر ، دخل براسه من تحت الفراشة ، خلص على شوك السمك المتكوم جنب ديل الجلابية ، والظاهر لقى شوك تانى غطت عليه الجلابية ، فدفس راسه بين رجلين المعلم ، وسحب جسمه كله ، وساب حتة مع ديله بره ، كانت بتلعب زى راس التعبان ، وأنا - ربك والحق - ماقدرتش أقاوم ، رفعت رجلى على الكعب ، ورحت ضاغط بالبوز على حتة الديل ، وهووب ، القط صرخ وشبط فى لباس الراجل من تحت ، والمعلم بكل هيلمانه اتحدف لورا ، وتشقلب على ضهره ، وانكشف حاله ، وأخوك قاعد كأنه ما عملش حاجة - مين الوحيد اللى راصد حركتى ؟ المقرىء ، كركع فى المكيرفون غصب عنه لما شاف الناس بتجرى على بره ، فاكر إن فيه زلزال، لأن وقعة الرجل نزلت على عمود الشادر اللى ورا ضهره ، فانهز الشادر كله ، ولمض السقف قعدت تضرب فى بعضها ، أدى قط من القطط قدر يعمل لى حاجة ؟ أبداً . دا حتى ما قدرش يتنبأ باللى حصل ، وخد روحه وقال يا فكيك .

انعشت الحكاية وجه الاستاذ دسوقى ، وانشرح قلبه قليلاً . وقد بان ذلك

على قسمات وجهه الباسم .

- دا أنت قلبك ميت يا على .

- لا ميت ولا حاجة . أنا اميل للتفكير العلمى غيرش إنى بأسيرك فى تفكيرك ، لأنك فى أزمة حقيقية ، والغرقان بيتعلق بقشاية .

- يعنى واخدنى على قد عقلى .

- ما تفهمش الموضوع غلط .. أنا متعاطف معاك إنسانياً .

- كتر ألف خيرك .

- واجب الزمالة ، والجيرة ، وصداقة العمر يا دسوقى .

- كتر ألف خيرك .

- ثم إنى باكره القطط عمى .

- ومين سمعك يا اخوى .. أنا ماطقش مواءهم فى الشارع ، ولا صوت الإستغاثة من قطة صغيرة تركن تحت شباكى ، تموء بإلحاح طول الليل ، لا تهمد ، ولا تخليك تنام ، يا أخى أنا حتى ما أحبش ابص فى عينيهم ، ولو فى عز الضهر .

- ويكفيك الشر يا أخوى لما يجى موسم .. بتسموه إيه بالفصحى ؟

- السفاد .

- أيوه أيام السفاد ، لعنة ، يقعدوا ينادوا على بعض لغاية ما يحصل النصيب ، ولقاؤهم الجنسى عنيف ، زى ما يكون خناقة ، لا فيه مداعبة ولا تحنين ، بقولك خناقة بين عدوين ، ما تحسش بذرة حب .

- ويقول لك إن عضو القط عامل زى الشوكة ، سنانه بالعكس ، وساعة ما يولجه ، ويتم المراد ، يجى يسحبه تقف الأسنان وتهتك فى فرج القطة

لغاية ما تنزف .

– بيقول لك يا سيدى ما يتمش اللقاح إلا بالعملية الدموية دى .

– يا ساتر .. ربنا يقرفهم .

وبدأ القطار يأخذهما من شريط إلى شريط عبر تحويلات كثيرة ومعقدة ، نظرا من الشباك فوقع نظرهما على مساكن شعبية متهالكة ، تسقط عليها أشعة الصباح ، فتبرز دمامتها ، شرفات ضيقة مخنوقة ، مزدحمة بكراكيب كثيرة ، معلق على معظمها خزين البصل والثوم ، وعلى حبال الغسيل فى الشرفات الخلفية لفف أطفال وملابس حريمى ملونة ، ومرسوم على مساحة جيرية بيضاء من جدارها صور لعبد الناصر كان وجهه المحدد بالفحم الأسود حزيناً جداً ، ومكتوب بخطوط ركيكة (إلى جنة الخلد يا جمال) (الوداع يا جمال يا حبيب الملايين) .

وعلق الأستاذ على بامتنان حقيقى .

– فيهم الخير أهل مصر .. لسه فاكرينه .

محطة مصر

هذه محطة مصر ، لم يهبطا تحت المظلة الحديدية المسقوفة بالزجاج ، وقف بهما القطار على رصيف الشرق ، رصيف بعيد ، مظلاته من المسلح ، وتنتشر بين أعمدته كراسى من الرخام الرخيص ، شعرا بالإهانة ، وكأنما إقليمهما غير جدير بالقطارات السريعة ، وناسه أقل مكانة من الوصول تحت المظلة الزجاجية العالية التى خصصت لقطارات الثغر والمدن الأخرى التى تمر عليها ، مثل بنها ، وطنطا ، ودمنهور .

وتذكر الأستاذ دسوقى ذلك الإكسبريس الذى يمر عبر بلدته فى شهور الصيف ليحمل المصطافين إلى رأس البر . كانت البوابة تهيأ له قبل الوصول بمدة ، وتضرب الأجراس ، وتستعد له التحويلة ، ويقف المحولجى بالطوق المحمل بالأسطوانة التى تؤكد له أن الطريق الفردانى مفتوح أمامه ، ولا شىء يعوقه .

حين يقبل ليدخل بين الرصيفين ، تهتاج له الأرض ، وتنبعث بين القضبان عواصف ترابية ، تحمل أوراق الجرائد وغيرها من النفايات التى يلقى بها ركاب القشاش .

كان دسوقى يشعر بالحقد من القطار ذاته ، ومن تلك الوجوه الناعمة التى لا ترفع عن المجلات لإلقاء نظرة على البلدة . قوم مرفهون ، محجوزون خلف الزجاج ، لا يعنيهم غير الوصول إلى البحر ، وإذا عنَّ لأحدهم أن يلقى نظرة فكأنه لا يرى شيئاً البتة ، منظر مكرور ومعاد لقرى ومدن صغيرة متشابهة لا تثير الفضول فى نفسه .

ومازال المصير هو المصير ، ينفى قطارهم فى آخر المحطة ، ليقطع هو والأستاذ على الكثير من الأرصفة ، ويهلك الجسد المرهق ما بين هبوط نفق وصعود آخر ، حتى يصلا إلى البوابة الخارجية ليواجها جدهما الحجرى رمسيس الواقف وسط باب الحديد . يندفق الماء تحت قدميه ، ويثبت ناظريه فى العمارة المرتفعة أمامه ، محدقاً فى الإعلانات الكبيرة المنصوبة على سطحها ، ولا يهمه من أمر أحفاده شىء .

أراد الأستاذ على أن يجرب فى زميله معرفته العميقة بالتاريخ .

– خلى بالك يا دسوقى .. رمسيس على طوله كدا كان أهطل .

– إزاى يعنى ؟

– إخوانا الشراقوه اللى بنوا تل بسطة نهبوا معابده وقصوره .

– يعنى إحنا من نسل حرامية ؟

– حرامية إيه يا جدع .. دى شطارة ، يعنى كانوا حيجيبوا جرانيت منين ، ثم إنهم كانوا جايين فى الآخر ، أما جدك رمسيس كان زمان نهضة كبيرة ، ويعدين ما اخدوش كل حاجة ، شوية طوب ، بنوا بيها عاصمتهم الجديدة .

– وإيه الجدعنة فى كدا يا على ؟ دى برضة سرقة .

– آثاره الكبيرة لسه بخيرها ، إنما اللى خدوه رجالة تل بسطة حاجات قليلة ، وادى أنت شفتها مافيش طوبة على طوبة .

– علشان الحرام ما ينفعش .

– دا أنت حــرام فيك المعــلــومة يا جــدع .. سير قدامى خلينا نلحق وقتنا .

– أنت ماجعتش ؟

– أنا على لحم بطنى .

– تعال نشوف لنا لقمة ع الماشى .

– عدى بس قبل الإشارة ما تفتح .

عبرا الميدان بين زحام البشر حتى وصلا أول شارع كلوت بك ، دخلا تحت البواكى يتابعان اللافتات بحثاً عن مطعم نظيف يبتاعا منه سندوتشات الفول والطعمية .

– بيتهيألى الراجل دا أنضف طعمجى فى مصر ، أنا لما بانزل رحلة مع الأولاد باكلهم منه .

– تاخدكم سندوتش ؟

– خلى عنك يا دسوقى .

– المشوار مشوارى ، وكتر ألف خيرك إنك عطلت نفسك علشانى .

– عيب يا جدع إحنا إخوات .

الميت يرتاح على المقهى

اختارا مقهى يصف بعض الكراسى والطاولات خارجه ، ارتاحا على الكرسيين ، فضا الأوراق عن السندوتشات ليلتهما الطعمية السخنة والفول المخلوط بدقة حراقة .

قدم إليهما الجرسون كوبين من الماء .

– يا صباح الورد .

– اجبر الزاد يا أخينا .

– الحمد لله ، فطرنا من بدرى .

– طب هات لنا اتنين شاى تقال .

– وعندك اتنين شاي مغلي للناس اللى زى العسل .

– دا أنت اللى عسل .

كانت شمس الصباح تنسحب هادئة من وسط الشارع لتتوارى خلف العمارات القديمة ، فيتمدد الظل رطباً تحت البواكى ، وكان المذياع ينهى أغانى الصباح ، وأعلنت المذيعة عن برامج الأطفال الذى تقدمه أبلة فضيلة .

الشارع كان شبه ساكن فى مثل هذه الساعة من يوم الجمعة ، لا يسمع غير أصوات الراديوهات تنطلق من المحلات القليلة المفتوحة ، والمقهى شبه خال من الزبائن ، خمسة أو ستة رجال يتوزعون على الطاولات الداخلية ، أما الطاولة الأخرى ، على الجانب الآخر من باب المقهى كانت شاغرة .

– تحبس بحجر معسل ؟

نظر دسوقى إلى ساعته وقال : عاوزين نلحق الشيخ قبل الصلاة .

– إن شاء الله حنلحقه .. هات لنا يا ابنى شيشة .

– وعندك شيشة معتبرة .

قدم نحوهما ثلاثة رجال يرفعون صندوقاً عليه غطاء فسدقى معتم ، عليه كتابات كبيرة ، هى آيات قرآنية بخط كوفى واضح . حين رآهم زبائن المقهى وقفوا فى صمت رافعين أصابعهم فى مواجهة الصندوق ، اضطر الأستاذ دسوقى والأستاذ على أن يقوما مع القائمين ويصدرا أصابعهما مرددين الشهادتين فى همس ، وجزع .

وضع الرجال الصندوق على الأرض ، وصفق أحدهم للجرسون فتقدم نحوهم رافعاً يده على جبهته فى تحية وجلة .

– هات لنا تلاتة حلبة بالحليب .

– وهات تلات شيش كمان..

– الظاهر الزبون سقع .

– مرزوقة الحمد لله .

مال الأستاذ على على أذن زميله ليقول له بصوت خفيض .

– وفين أهله ؟

– سبقوهم على الترب ، أو تلاقيهم أغراب ملهمش ترب .. وإخواننا دول خدوها مقاولة ، غسل ، وشيل ، ودفن .

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. قوم يا عم نحلق مشوارنا .

– أنا كمان مش طايق ريحة الكولونيا اللى مغرقينه بها .

الشيخ هداية

دخلا ميدان الحسين من شارع الموسكى ، فصار الأزهر وأبو الذهب على يمينهما وإدارة الأزهر فى مواجهتهما والميدان الفسيح عن يسارهما .

كان المصلون يتجهون فرادى وجماعات نحو باب المسجد القبلى الذى يتلقى شمس الظهيرة المفروشة على المساحة الخضراء وسط الميدان ، وكانت المطاعم والمقاهى تخفى مقاعدها تحت ظل البواكى لتوسع لحركة المصلين ، وصوت المقرىء الذى ينطلق من مكان خفى يهز أطراف النخيل الملكى ، ويرعش القلوب الوجلى .

اتجها فى صمت نحو الباب ، يرقبان ظهور الشيخ هداية ، وليتأكدا من حقيقة وجوده «هل صدق أبو النجا؟» .

نعم .. فهاهو الرجل بلحمه وشحمه ، وكما وصفه لهما يقتعد الجانب الأيمن من الباب ، ملابس مرقعة بألوان قوس قزح ، ولحية مرسلة قذرة ، وعمامة خضراء ، ومسابح طويلة تتدلى على الصدر ، وهتاف يتردد من حين

لآخر «حى» «قيوم» «لا إله إلا هو» .

همس دسوقى فى أذن رفيقه :

نتوضأ الأول بعدين نيجى للراجل .

– المهم تأكدنا من وجوده .

اتجها إلى يمين المسجد ليمرا على الباب الأخضر ، رفعا أكفهما أمام وجهيهما ، ورددا الفاتحة لصاحب المقام .

– الفاتحة لك يا سيد شباب أهل الجنة .

– علشان خاطر جدك الحبيب المصطفى ترجعها لى ..

همس بها دسوقى وجسده يعتصر فى ألم الفقد والغياب ، وأحس للحظة بأنفاسها إلى جواره ، كانا قد وقفا يوماً فى نفس المكان حين ألحت عليه بزيارة الحسين ، وسمعها وهى تناجيه بينما الدموع قد فاضت من عينيها فأسالت الكحل على الخدين المزهرين «أنا مش طالبة من الله ، ولا يكتر على الله غير ولد يملا علىّ البيت ..».

سمع دسوقى نجواها ، ووارى وجهه بعيداً ، ورنا إلى الهلال الذى تنتهى به حافة مئذنة صغيرة نحيلة ، تشبه قلم رصاص تآكل أمام ضربات الموسى والبراية .

ورأى بأم عينه الرسول وهو يطيل من سجدته فى الصلاة ويمتنع عن القيام لأن الحسين الطفل أعتلى ظهره ، ويرى بأم عينه الرسول وهو يميل بجسده إلى الأرض ليمكن الحسن من فخذ والحسين من الفخذ الآخر ليلهو معهما فى بيت ابنته فاطمة . صار الحفيدان بديلاً لإبراهيم الذى بكى من أجله جبريل ، وواسته فيه ملائكة السماء.

«يعنى الرسول نفسه كان محروماً منهم».

بعد الإنتهاء من الوضوء مرقا من صحن المسجد عبر الباب الخلفى ، قطعا المسافة وهما يرفعان نعليهما ، تدوس أقدامهما السجاد الناعم اللحيم ، كان المقرئ يتصدر المقعد الخاص به تحت عمود المنتصف المواجه للمحراب.

أطل الأستاذ على من فتحة الباب القبلى ، فطالع الميدان الفسيح مرة أخرى ، بحث عن الشيخ هداية ، فلم يجده فى مكانه.

– يا نهار حابك .. الراجل مشى.

– الحقه يا على .

– ألبس الجزمة بسرعة .

عبرا الحاجز الخشبى ، ومال كل منهما على حذائه ، ووضعه فى قدميه بلهوجة ، وارتاحا لسماع الهتاف «حى» «قيوم» ولحقا بالرجل الذى يسير مترنحاً بين الزحام باتجاه الباب الأخضر .

– يا شيخ هداية تسمح كلمة .

– بيده الأمر كله .

– سبحانه .

– خير يا ابنى.

وتقدم الاستاذ على ليشرح له سبب الزيارة ، وكرر الحكاية مرة أخرى لأن الشيخ ظل يستوقفه ، ويسأله عن تفاصيل لا يدركها ويتولى الأستاذ دسوقى الشرح.

– لا .. المسألة ما أخدتش أكتر من كلمتين «عجباك .. خدها» .

– يعنى أنت اللى أذنت له .

– ماكنش قصدى .

– القط برئ.

- والحل يا مولانا .
- مفيش غير حل واحد .. تعدوا شارع جوهر القائد.
- تمام .
- وتدخلوا من الشارع اللى قدام باب الأزهر.
- تمام .
- تسألوا هناك عن سبيل قايتباى.
- قايتباى.
- على ناصية الشارع اللى على اليمين . اللهم اجعلنا من أهل اليمين..
- وهو كذلك .
- تسيبوا شارعين ، وتدخل يمين تانى.
- يمين تانى .
- حتلاقوا هناك خرابة واسعة.
صلوا مع المصلين .
- فى الخرابة !!
- اسمع الكلام .. أنا مش فاضى لك.
- ماشى يا مولانا.
- بعد ما يختم الإمام الصلاة ، يدخل عليه صاحب الحاجة يبوس إيديه ، ويحكى له حكايته ، والباقى على الله.
- كدا وخلاص.
- سلام عليكم .. الحقوا وقتكم ليروح مشواركم هدر.

أسرعا نحو شارع جوهر القائد ، قطعا الإتجاهين حذرين من السيارات القليلة التى تعبر سريعاً .

ودخلا الشارع الضيق الذى يحجز واجهة الأزهر الغربية وجدران مسجد (أبو الدهب) المرتفعة.

الخرابة

ها هى ذى الخرابة كما وصفها الشيخ هداية .. لكنها فارغة ، لا وجود لمسجد ، ولا لمصلين «فكيف أسأل عن زوجتى لمن لا وجود له » حدث دسوقى نفسه المحبطة ، ونظر إلى وجه الأستاذ على ، فكان حائراً ، لا يستقر على شئ .

لفهم صمت كئيب ، هل يعودا إلى البلد دون إنجاز مهمتهما ؟ هل سلما أمرهما لنصابين يتظاهران بالتقى والورع بينما تحركهما نفس شريرة ، لها أغراضها الدنيئة .

- قال حتلاقوا جماعة بتصلى .. صلوا معهم .
- حنصلى مع الهوا يا دسوقى !!
- عندى اقتراح .
- تفضل .
- نقلع الجزم وندخل الخرابة زى ما بندخل المسجد والباقى على الله..
- والنبى لو حد شافنا حيقول مجانين .. ويزفونا فى الحارة .
- يا عمى نجرب .
- أنا معاك لآخر المشوار .
- والله شهم يا على.

خلعا النعال ، وسارا بالجوارب على شقافة وطوب وزجاج مكسور ،

وسلوك صدئة ، وصفائح قديمة ، وكراتين ورقية متناثرة ، وأوراق صحف أصفر لونها من البلى.

وكانا كلما تقدما فى المكان يدوى فى آذانهما مواء قطط خفية . ظل يرتفع رويدا رويدا حتى أتضح لهما مواء يماثل صوت الخطيب ، ألقيا نظرة فى الجهة الشرقية ، فبرز للوجود هيكل لمنبر قديم ، ومحراب بهتت زخارفه ، بعدها بانت الأجساد المتراصة فى صفوف ، تميل برؤوسها إلى الأسفل ، تنصت للخطبة فى صمت جليل ، أختارا مكاناً شاغراً بين الصفوف الخلفية، صلا ركعتى تحية المسجد ، ثم تربعا فى المكان بعد أن شمرا سراويلهما المضمومة على السيقان.

تبادلا نظرات الدهشة ، فوقعت عيونهما على الوجوه المائلة ، كانت جميعها بملامح متشابهة ، يرتفع تحت فتحتى الأنف شوارب رفيعة تتناثر كخيوط متفرقة ، ولا تشبه فى شئ شوارب الرجال ، والشفة العليا شبه مشقوقة ، وأنياب صغيرة بيضاء تبرز من الأشداق مما تثبت على الوجوه حالة عدائية ، بلا مبرر.

حين أنتهى الخطيب من خطبته رفعا الأدعية مع الداعين وعندما اتخذ مكانه بين قوس المحراب وقفا مع الواقفين وبعد أن رفع يديه إلى صدغيه لينوى الصلاة ، انكشفت الأكمام عن أذرع مشعرة ، ومخالب دقيقة حادة.

صرخ قلباهما فى صدريهما ، وأرادا الفرار . ولكن لا سبيل . الصفوف أحكم غلقها ، وانطلقت «الله أكبر» فى مواء صاخب ، فهتفا معهم ، وقرئت الفاتحة فى هرير حوم فى المكان كشقشقات العصافير عند حلول الظلام.

بعدها انطلقت «آمين» هادرة ، قوية ، وامتزج صوتهما الإنسانى مع الهدير .

ركعا مع الراكعين ، وسجدا مع الساجدين ، وتليا التشهد فى بطء وروية ، ثم أخيرا أنهى الإمام الصلاة بالتسليم جهة اليسار ، والتسليم جهة اليمين ، فأسرعا إليه مخترقين الصفوف ، ودنا منه دسوقى قبل إنفضاض الجمع ، وتقدم خطوة ليميل على يد الرجل فيقبلها ، فكاد يرتد بظهره ، أفزعته شعيرات الكف ، وأرعبه ملمس المخلب .

- بارك الله فيك .

قال له الإمام وهو يربت على كتفه.

- ما حاجتك ؟؟

واندفعت الدموعُ فجأة من عينيه ، وهو لا يدرى أهى دموع الرعب أم دموع الفقد ؟

وتقدم الأستاذ على لينقذ رفيقه.

- يا مولانا هذا صديقى دسوقى بن بدران بن الشوادفى أستاذ اللغة العربية بمدرسة الجزيرة الإعدادية .

- هل أنت صاحب الحاجة ؟

- عفواً يا مولانا إنه فى حالة لا تسمح له بالكلام.

- دعه يتكلم .

حاول دسوقى التماسك ، بعد أن مسح دموعه وعرق جبينه بمنديل مكرمش سحبه من جيب السترة.

- زوجتى يا مولانا مر عليها أسبوع بالضبط وهى مختفية خطفها قط أسود.

أمسك الإمام الأستاذ دسوقى من كتفه وأشار إليه ليصمت بعض الوقت ، واتجه إلى المصلين قبل انفضاضهم .

– لا تغادروا المكان .. انتظروا جميعاً.

فلبوا نداءه فى الحال ، ووقفوا يتهامسون بمواء خفيض تعلو وجوههم القططية الدهشة ، والاستغراب .

– أكمل يا بنى...

– كنا نصلى الجمعة الماضية معاً فى مسجد الحى ، ذهبت أنا لشراء الفجل والجرجير ، وسبقنى الأستاذ دسوقى إلى شقته ، فنحن جاران فى نفس العمارة.

– قلت لك لو سمحت دعنى أسمع صاحب المشكلة .

سيطر دسوقى على حنجرته كما استطاع جمع شتات بدنه المنتفض .

– بعد عودتى من الصلاة وجدت سميرة وقد أعدت الغداء.

– هذا اسمها .. سميرة ؟

– خدامتك سميرة بنت هانم ، زوجتى على الحلوة والمرة وبنت حلال خالص ، وعمرها راضية بحياتنا ، لا تشكو ، ولا تضج ، واسأل جارى الأستاذ على.

– المهم .

– جلسنا على السفرة لتناول الغداء ، وكنا قد تركنا الباب موارباً ، فدخل قط أسود لم أره فى بيتنا من قبل ، قفز إلى السفرة ، وجلس بين الأطباق بجرأة ، وراح يحدق فى عينيها ، فقلت له من باب المزاح «عجباك .. خدها » واختفى فجأة ، واختفت سميره معه .

وتدخل الأستاذ على مرة أخرى.

– ذهبنا إلى المعبد الذى كان يقدس فيه القط فى سالف الدهر .

– أنتم من الشرقية أذن.

– نعم يا مولانا مركز الجزيرة محافظة الشرقية.

– ودلنا الحارس على الشيخ (أبو النجا) ، ودلنا الشيخ (أبو النجا) على الشيخ هداية ، ودلنا الشيخ هداية على حضرتك .. والبركة فيك .

أتجه الإمام بوجه صارم نحو جماعة المصلين صائحاً فيهم بقوة حتى أنهم ماءوا بفزع وتقوست ظهورهم ورفعوا مشافرهم مبدية أسنان صغيرة قوية.

– من الذى خطف زوجة هذا الرجل ؟ (وأشار إلى الاستاذ دسوقى الذى عقد ذراعيه أسفل بطنه ، وأحنى رأسه بخنوع) .

– أنا يا سيدى.

شق الصفوف شاب وسيم ، يميل شعره الناعم على جنب ويرتدى قميصاً شفيفاً يبدى عضلات قوية نافرة ، ولسرواله حزام عريض يدور على خصر نحيل.

رفع الأستاذ دسوقى وجهه الذليل ليواجه غريمه الذى يتقدم نحو الإمام بثقة واطمئنان ، كادت أسنانه تنفرط فى فمه من عنف الضغط ، وتوترت أصابعه لأن يده كادت تسبقه إلى عنق صلاح الذى لم يعره إلتفاتاً ، وأكتفى بالقاء نظرة جانبية محتقرة.

أحس به الأستاذ على فمد إليه كفه ، وضغط على راحته بشدة ، وهمس له فى أذنه : إهدأ يا دسوقى ».

– مش عاوز يسيبنى فى حالى أبداً.

– خلى الراجل يشوف شغله معاه.

رفع الإمام مخلباً مقوساً ومشدوداً أمام عينى الشاب .

– لماذا آذيت هذا الرجل فى زوجه ؟

– أنا لم أخطفها كما يدعى يا سيدى ، هو الذى أمرنى بأخذها .

– ومتى أمرنا بخطف زوجات الرجال من أهل الدنيا .

– هى حبيبة القلب قبل أن يقصف عمرى.

– إذن لم يقدر لك أن تكون زوجاً لها ، فصارت حقاً له .

– ولكنها لم تخلص له بقلبها أبداً (وأراد دسوقى أن يصرخ فكمم على فمه براحته حتى لا يفسد الأمر كله).

– وما أدرانا نحن بذلك ؟

– هى تعيش معى الآن فى أحسن حال.

– هى غير منذورة لك .. إياك أن تعود إليها بأية صورة

فبكى الشاب الوسيم بحرقة.

– ارحمنى يا سيدى.

رفع الإمام مخلبه الحاد أمام عينيه صارخاً فيه .

– ليعد هذا المسكين إلى بيته ، ويجد زوجته هناك بانتظاره .

– أمرك يا سيدى.

خمش الشاب خديه لتسيل الدماء على صدره .

– وماذا أفعل أنا بربك ؟

– ترضى بمصيرك .. أيها الميت .

– سأنفذ أمرك .. ولكنى سأنتظرها حتى تعود إلى روحاً نقياً.

وسار بين المصلين المشفقين عليه الساخطين على القادمين من أهل الدنيا وعلى حكم الإمام الجائر.

– سأنتظرها .. سأنتظرها .

التفت الإمام إلى دسوقى مطمئناً إياه.

– أذهب إلى بيتك .. هى الآن بانتظارك.

رفع الأستاذ على كفيه إلى جانب رأسه محيياً الرجل .

– كتر ألف خيرك .. كتر ألف خيرك.

وجر الأستاذ دسوقى من ذراعه . كان صامتاً ، ومبهوتاً ، يمشى بجسد ثقيل ، لا يدرى هل يسعد بعودتها ؟ أم أن الحياة ربما كانت أفضل بدونها ؟..

تسرب ثعبان الشك إلى قلبه..

لم تعد سميرة كما عاش معها على الوهم الكاذب ، ولم يعد هو نفسه دسوقى الذى قضى معها كل سنواته الماضية فى رضا زائف .

فى شارع الموسكى

صارت الباطنية خلفهما ، وانكمش الجسدان تحت جدران الأزهر و (أبو الدهب) ، دسوقى بدران لا يدرى هل يفقد الأمل تماماً ؟ أم يتعلق بتلك القشة التى مدت إليه من مخلب الإمام ؟

كانت الأفكار تنوم فى عقله ، فلا يحفل بحجم جسده الضئيل بين ارتفاع الجدران التى انشغل بها صديقه على ابراهيم . كان يحدق فى كل الجوانب، ويمد يده من حين لآخر ليلمس الحجر الراسخ.

وكان الكلام يطفو على أطراف لسانه ، غير أن سحنة دسوقى تحبطه ، فيسحبه إلى الداخل . كظيماً ، مخنوقاً .

وأخيراً تشجع ..

– عارف يا دسوقى أن (أبو الدهب) خان أستاذه..

– أستاذه مين ؟

– على بك الكبير .

– والنبى إنك رايق يا على .. دا وقته ؟

– يا عم سيبها على الله .. الشيخ اكد لك إنك حتلقاها بانتظارك فى البيت ..

– كلام قطط .

– وقمنا برحلتنا دى ليه ؟؟ مش علشان نسمع الكلمتين دول ؟ يا ساتر .. علشان خاطرى تاخد بالك .

وشده بقوة نحوه ، لأن السيارة المسرعة بشارع الأزهر كادت تدهسه.

– والله كان الواحد ارتاح .. وخلاص .

– ارتاح فى بلدك هناك ، ماتحملنيش الهم هنا .

– كدا يا على ؟

أدار وجهه جهة إدارة الأزهر ، ودفس رأسه إلى أسفل.

وانكسرت عيناه على أسفلت ميدان الحسين الرحيب .

كيف يخاصم رفيق رحلته ؟ فليؤجل هذا حتى يعثر على زوجه .

«هل أنت نذل إلى هذا الحد ؟ الرجل لم يترك مشواراً إلا وقطعه معك . وها هو يقوم مع أذان الفجر ليصحبك فى هذه الرحلة الشاقة ، ما الذى أشقاه غير الصداقة النزيهة ؟ أنا قلبى أبيض كالبفتة ، وهو كذلك ، أغضب منه لبعض الوقت ، وكذلك قد (ينقمص) منى أياماً ، ثم نعود كأن شيئاً لم يحدث ».

– واخد فى وشك فين ؟ الموسكى من هنا.

وانتهى كل شئ كما توقع ..

دخلا الموسكى متأبطين ، يشقا لنفسيهما طريقا بين الزحام الخانق الذى يضرب كتفيه من كافة الجهات ، وجوه .. وجوه ، يختلط الباعة مع المشترين ، أهل المدينة بسكان الاقاليم ، ومهرجان من الأزياء ، المدينية والريفية ، نساء ينتمين للأحياء الشعبية يضعن على رؤوسهن الايشاريات ، وأخريات يسترن وجوههن بالخمار أو النقاب ، وقلة منهن تركن الوجه سافراً..

– ياه .. كل ده خلق !!

صاح دسوقى بدهشة كأنما يرى مصر لأول مرة بينما غرضه الحقيقى فتح الحوار مع صديقه على ابراهيم.

المحطة آخر النهار

– هنا أول العتبة ..

وتطلع إلى الشمس الزاحفة خلف المبانى العتيقة للبريد والمطافئ وقسم البوليس.

– أنت بتعاملنى كأنى تلميذ عندك.

– يا أخى أدينى فرصة.

– فرصتك هناك فى الفصل.

– تاريخ البلد بينقح علىَّ .

– اتفضل .. عاوز تقول إيه ؟

– حاقول لما نوصل تمثال ابراهيم باشا .

– اشمعنى ابراهيم باشا ؟

– رجل عظيم.

– عرفنا .

– طب تعرف إن الأرض اللى واقفين عليها كانت بركة.

– طبعاً بركة الأزبكية .

– لما يغمض على حاجة فى اللغة العربية مش بسألك برضك ؟

– ماشى يا سيدى .. تبادل ثقافى بس فى فترات الصفاء الذهنى..

– وأنت إيه اللى معكر ذهنك ؟

– اللى نقوله نعيده .. دا أحنا بنقرأ فى (عبس).

– ما أنا عايش معاك الموضوع لحظة بلحظة.

– بس فى الآخر بترجع بيتك تلاقى مراتك وعيالك منتظرينك . أما بالنسبة لى .

– يا سيدى قول يارب . حترجع الليلة وتلاقيها على باب الشقة.

– أنت يا على مابتشوفش اللى باشوفه ، وما أقدرش أقول لك إيه اللى بيحصل لى .

– زى إيه مثلاً ؟

– أبداً .

– بس قول وسرك فى بير.

– أنت شفت صلاح وهو ماشى جنبى كتفا لكتف فى الموسكى ؟

– ياراجل قول كلام غير ده.

– شفت إزاى ما أقدرش اقولك كل حاجة .

– دى تهيؤات يا دسوقى.

– بالنسبة لك .. بالنسبة لى دى حقيقة .

– الله يكون فى عونك .

– حندخل ميدان المحطة منين ؟

– خد الشارع اللى على يمينك .

كان يود لو يصفو له ذهن صديقه ، ليقص عليه قصة الأزبكية قديماً وحديثاً ، وكان يريد أن يعرفه بالمكان الذى أغتيل فيه كليبر قائد الحملة

الفرنسية بعد نابليون ، كما أراد أن يحكى له عن فندق الكونتنتال والأحداث التى جرت فى أروقته ، وشارع الجمهورية الذى كان يطلق عليه اسم ابراهيم باشا قبل الثورة ، والمواكب الملكية التى كانت تنطلق من قصر عابدين إلى باب الحديد ، أو إلى الضاحية الشرقية بالقبة وهيليوبولس ، ثم كان يريد أن يذكر له تاريخ سبيل أولاد عنان على ناصية الجمهورية عند التقائه برمسيس، حيث يقف شامخاً فى المثلث المتساوى الأضلاع مسجد الفتح.

دخل دسوقى فى صمته العميق ، ولم يمنحه الفرصة أبداً.

– رحلة متعبة على القاضى.

خرج صوته عنيفاً وعصبياً حتى فوجئ بأن يديه تسبقانه إلى الفراغ حوله ، لتضربا الهواء الملوث بعادم السيارات وأنفاس البشر المنطلقين فى اتجاهات متقاطعة.

– بتقول حاجة يا على ؟

– بقول ناخد أكل معانا يمكن نجوع فى القطر.

– ما فيش مانع .

صلاح فى دورة المياه

هبط الظلام فجأة على رمسيس ، والشمس اختفت تماماً خلف عمارة (اڤرست) الشاهقة ، كانت تعلن عن رحيلها بجنوات متناثرة على حواف السحاب الأسود المتراكم فوق الميدان.

– حتنطر ولا إيه ؟

– الوقت ده مالوش أمان ، ممكن تقابل فصول السنة فى أقل من ساعة...

– أنت عالم جغرافيا كمان.

– يا أخى بطل سخرية.

– أنت نازل على راسى معلومات من الصبح.

– «خيركم من تعلم العلم وعلمه ».

– عامل أبو العريف وتاخدنا على مطعم رمة .

– على قد لحافك.

– مش للدرجة دى .. الفوطة اللى على الحوض من أيام رمسيس .

– صحيح حاجة صعبة جداً.

– نميل على الجامع نغسل إيدينا ، ونخطف العصر .

- القطر مش حينتظرنا يا دسوقى.

- يعنى نركب بوساختنا ومن غير صلاة !

- نغسل إيدينا فى دورة مياه المحطة ، وصلاة العصر ملحوقة .

إن شا الله نصليها قضا يا سيدى.

ظلا يروغان من السيارات ، ويقطعان الإشارات محتمين بالمشاة من أهل المدينة الذين لا تردعهم إشارة ولا (كلاكس).

أخيراً وصلا إلى السلم الرخامى العريض لمبنى المحطة المهيب ، وقبل المروق إلى المساحة الواسعة تحت المظلة الزجاجية ، انحرفا يسارا ليدخلا دورة المياه.

استلم كل واحد منهما صنبوراً ، بعد أن وقفا طويلاً فى الصف ، ثم راحا يرفعان الماء إلى الفم مرة ، وإلى الأنف مرة ، ثم مررا الأكف المبتلة على الوجه ، لينتعشا بالماء البارد.

وحين أنتهى دسوقى من ذلك ، مال على أذن على .

- أخوك محصور .. استنانى دقيقة.

- حقك الطبيعى يا دسوقى .

طرق دسوقى كل الأبواب فكانت النحنحات تأتيه من الداخل اعلاناً عن انشغال المرحاض ، ثم واتته الفرصة فى الباب الأخير ، رده وراءه بإحكام ، وظل على ابراهيم راكناً ظهره على القيشانى الأبيض النظيف بانتظار زميله.

فى الداخل مكث دسوقى متردداً . هل يخلع الجاكته والسروال ليأخذ راحته على القاعدة المرتفعة أم يظل على وضعه ويقضى حاجته سريعاً؟..

وتوصل إلى حل وسط أن يخلع السروال ، ويترك الجاكته ، وهد يديه ليفك إبزيم الحزام ، ثم سحب السروال محاذراً ألا يبتل من الحذاء ، وحين وفق فى هذا كله ، رفع السروال ليعلقه على المسمار المدقوق على خلفية الباب ، ففوجئ بالوجه الساخر قريباً منه جداً حتى كاد أن يشم أنفاسه .

كان واقفاً فى ركن مظلم ، ينسج العنكبوت بيته على جانبيه ويرتفع النسيج حتى يمتلئ به السقف المهجور.

نسى دسوقى كل شئ مرة واحدة ، وغادرته الرغبة فى قضاء الحاجة ، ومد السروال بالعرض حول رقبة صلاح ، ضغط بكل الغل الذى ينهش أعصابه ، وازدادت حمرة الوجه الساخر ، وتضاعفت ضحكاته التهكمية ، اصطنع حالة الموت ، فتدلى الرأس هابطاً برخاوة إلى الصدر ، ثم تهدلت اليدان إلى أسفل خامدتين كأنما قد سحبت منهما الروح الحية.

دسوقى ضرب قدما فى حلق القاعدة الخزفية ومال بكامل جسده القوى ، ضغط ، ضغط حتى انفلتت منه ضرطة صاخبة جعلت صلاح يهلل ويرفع يديه بنشاط ليخبط بهما صدغى دسوقى ، فسقط - دون أن يدرى كيف حدث هذا - إلى سيراميك الأرضية الناعم.

كان يلهث ، فوق بقع الماء الضحل ، يحاول القيام فتخذله ساقاه ، فانحنى عليه صلاح ليرفعه من ياقة الجاكتة ويعاجله بضربة فى بطنه...

- آه .. الحقونى يا خلق .

- حتبطل تجرى وراى ؟ جاى تشكينى لشيخ الخرابة .. خليه ينفعك .

ترامى جسده فى أركان المرحاض ، وتداخلت الصور فى عينيه فلم يعد مدركاً لحدود المكان ، وحين سمع الطرق القوى على الباب ، حاول تلمس الطريق إليه.

– أفتح يا دسوقى .. أنا على.

عثرت يداه على ترباس الباب ، فأعاده إلى الوراء.

واندفع على ليجره خارجاً ، ثم جاء رجال لا يعرفهم ، يعاونون فى حمله..

– البنطلون وقع جوه.

– حنجيبه بس حط راسك تحت الحنفية .

وأرعبته قطرات الدم النازف فى الحوض .

– المنديل فى البنطلون يا على .

– خد منديلى دلوقت وحطه على الجرح.

– كتر خيرك يا على .

كان يرفع يده بالمنديل ليضغط على الجرح ، ويسند بالأخرى على الحائط ليدخل ساقه فى فتحات السروال.

– كتر ألف خيرك يا أخوى.

– أيه اللى حصل؟

– ما أنا كل ما أقولك حاجة ماتصدقنيش.

– لأ .. حاصدقك.

– مقصوف الرقبة بهدلنى.

– صلاح !!

– قلت ما بتصدقنيش .

– خلاص .. يالله نلحق القطر ليفوتنا.

رفع ذراعه على كتف على ، ومال بثقل جسمه نحوه ، ضاغطاً بيده على المنديل ليقطع النزيف.

عبرا البوابة الحديدية ، وقطعا الرصيف الطويل إلى آخره ، ثم أتجها يساراً ليدخلا تحت مظلة حجرية قديمة تظلل رصيفاً وحيداً.

هو رصيف الشرق..

قطار الشرق البطئ

العربات المعتمة شبه فارغة ، تتوسط السقف لمبة وحيدة ، ضوؤها القليل لا يفارق دائرة مكنونة مكتفية بذاتها ، والركاب القلائل توزعوا على كراسى خشبية كالحة ، طلاب الجامعة ، وموظفون ، وبائعات الجبن والقشدة العائدات إلى الريف المجاور للعاصمة.

– تعال هنا يا دسوقى.

– مفيش شباك يشبه التانى.

– ليلة وتعدى.

– يعنى دول فى الشتا يعملوا إيه ؟

– ربك مع الغلابة.

– ونعم بالله.

– أفرد طولك .. الكرسى اللى ما يعجبكش انقل على غيره .

– خلينا جنب بعض.

فرد كل واحد منهما جسده على كرسيين متقابلين .

جعل دسوقى ظهره نحو النافذة ، وكذلك فعل على ابراهيم ، وراحا ينصتان لحركة القطار التى بدأت بطيئة جداً ، حين استجاب لدقات جرس

بعيد ، توالت الأعمدة منسحبة إلى الوراء ، تمتد ظلالها لتتكسر على العربات المتحركة ، واللمبات الصغيرة شحيحة الضوء تومض بخفوت كدمعات ثقيلة لكهل حزين.

ثم أضطربت العجلات الحديدية لحركة التحويلات ، فاهتز جسد الغريبين المسافرين ، وتماسك دسوقى حتى لا يسقط بين الكرسيين.

– القطر ده ليلته طويلة.

– وأنت مستعجل على إيه ؟

– عاوز أتأكد من كلام الشيخ.

– إن شاء الله حتلاقيها.

– الود ودى لو اعتر على حمار من العفاريت.

– حمار إيه؟

– اللى تضرب فى كفله مطواة أو سكينة وتقوله خدنى على بلدى فياخدك فى غمضة عين.

– قصدك حمار نفاثة.

– رجعنا للسخرية.

– يا أخى خلى اللي بيتكلم عاقل والمستمع مجنون، حمار إيه اللى يقطع المسافات بين البلاد فى غمضة عين؟

– يا سيدى خلينا نحلم، دى أمنية إنسانية.. يعنى أنت مش مصدق حكاية البُراق؟

– دى معجزة تخص رسول الله.

– ماسمعتش عن بساط الريح؟

– سمعنا.. قول لو عندى تليفون كنا اتصلنا بالبيت نتأكد من زينب مرتى

أو لو عندك كنا طلبنا النمرة، وردت علينا الست سميرة.

– ربنا يسمع منك.

– خد لك غفوة تريح أعصابك، وبكرة تفرج.

– لسه حستنا لبكرة؟

– إن غداً لناظره قريب.

– دا أنت فصيح كمان.

– نام لك شوية يا دسوقى.

– حاضر.

وترك بدنه لهدهدة القطار يؤرجحه بحنو ذات اليمين وذات الشمال، وترك عينيه محدقتين فى المكان تطالع الأشباح المستجيبة للغفوة على الكراسى المتناثرة، ويرقب النسوة اللائى لففن رؤوسهن بأغطية سوداء غليظة، ويمد البصر خارج النوافذ المفتوحة أمامه ليرى القرى الواقعة على خط القطار، ترمى من حين لآخر ومضة ضوء لا تدوم طويلاً.

إذا كان للعين جفنان يمكن أغلاقهما فكيف يحمى سمعه من ضربات الأبواب المفتوحة، وضلف النوافذ التى تهبط فجأة فى مجراها، لتغلق الإطار الفارغ من الزجاج، وكيف يسد أنفه ليتفادى رائحة المرحاض الصدىء والتى تعانى صنابيره جفافاً مزمناً.

ثقل رأسه رغم كل شئ..

وسقط على صدره مستجيباً للغفوة التى سحبته إلى بئرها السحيقة.

غصناً «ذى شماريخ ميال» كما رغب أمرؤ القيس، يريد لو يلمس جسداً تأبى الروادف والثدى مس البطون وأن تمس الظهور، كما جاء فى «حماسة» أبى تمام.

عجيب أنها لم ترفع يدها عن يده، بل سارت أمامه، لتجره وراءها، وهو استجاب لجرها مستكينا، لا يدرى ما تفعل به.

التفتت إليه بعينيها الباسمتين.

– حبيبى.

– يا حبة عينى.

– تعال لنقف على الباب لنشم هواء الحقول النقى.

– أمرك يا روح الروح.

فتح الباب الثقيل إلى أخره، فاندفع تيار من الهواء البارد، انتعشت به الرئتان، ودنا منها دون أن يفلت كفها العرقانة، ومد اليد الأخرى، فأمسك بالكفين معاً، وصار بكامل بدنه بين حضنها، شدته برفق نحوها، واستجابة وهو يريد لو يسكت القلب الصاخب بين أضلاعه، فلا تكشف ضعفه ولهاثه الحميم، وشدته أكثر حتى تلامس البطن بالبطن، وأحس بنهديها الصلبين الموجهين نحوه بتحد، فكت الكفين لتجعل الذراعين يحوطان قناة الظهر مستمتعاً بعضلاتها المتماسكة، ثم ضمته ضمة عنيفة نحوه، فكاد يصرخ من عنف الضمة، أعقب هذا ضمة أشد فكاد الطعام يسرى من معدته إلي حلقومه، ثم رفعته إلي أعلى، واندفعت نحو الخارج، فحلقا لبعض الوقت في الهواء الذى يدفعه القطار إلى الخلف.

ولما أدرك أنه سيسقط فى ماء الترعة الموازية لخط القطار، صاح بأعلى صوت: الحقنى يا على.. ظلا يحومان بخفة قرب النوافذ المهشمة. كانا خفيفين جداً كريشتين لا راحة لهما إلا بالهبوط لا إراديا على حصى الأرض أو فى ماء الترعة، وقبل السقوط فى الماء سمع صوت استغاثته الأخيرة.

– يا أستاذ على.

رحلة الماء

– لماذا اخترت اللقاء فى الماء؟

– مكان إقامتى.

– أنت جنية إذن!!

– جنية ابنة جنى. هو زعيم مملكة الماء فى هذه الترعة وروافدها.

– صعدت إلى قطار الشرق لتفوينى؟

– بل لأحضرك لتقف بين يدى أبى ليحكم فى أمرك.

– كيف أعيش بينكم وأنا لست بيوسف الطفل ولا بيونس الذى عاش فى بطن الحوت؟

– لا دخل لك بمثل هذه الأمور.

– أنا لا أملك خيشوما، ولا زعنفة.

– ستكون معداً حتى يحسم أبى فى أمرك.

سحبت طرفى العباءة السوداء إلي الوراء، فاندفق ثديان طويلان يصلان إلى حبة السُرة، ينتهيان بحلمتين كبيرتين بحجم ثمرتى بطاطا، تغريان الطفل على على التهامهما دون أن ينقصا أبداً، التهام أبدى لجوع مستمر.

حين ألقت العباءة على الأرض التى تتماوج بأعشاب مائية لا وجود لها

قيام الروح

اللـــه

ما أجمل هذه العيون، كيف يشع ضوؤها فى هذا المكان الكابى؟ لم أرمثلها فى حياتى، عيون طيبة، رفيقة، حانية. تحنو على الناظر إليها، دون زجر، ولا ردع، ولا إدانة.. فيها دعوة رحيمة، واستجابة..

وهذا ما يبث النشوة فى أعطافى.

رأسى يتأرجح على انتفاضات القطار المتخلع، يطلق صفيرة ، وينفث لهاثه، يحاول جهده الانتقال من محطة إلى محطة، يتحسس طريقه بمصباحيه الكليلين، ويقتحم الليل بقوة العادة، يعبر بين أرصفة القرى، فلا أحد ينزل، ولا أحد يصعد، كأنه أمر يستجيب إليه قدرياً، لا رغبة، ولا متعة لما يفعل، فعمره المتهالك نزعت منه نزوات المغامرة الليلية، وخبت لديه رغبة الاكتشاف والاقتحام، لا جديد عنده، إنه يستجيب لسوط الطاقة التى تمور فى موتوره، ولو خير فى عمله لاختار التقاعد فى المخزن ليسلم جسده للصدأ حتى يتحلل..

والعيون هناك على المقعد فى الصف المقابل تعطى بلطف، وحنان ولا ترمش، ولا تنسحب عن مجال بصره على إبراهيم استسلم للنوم تماماً، سقط رأسه على صدره، وارتفع شخيره فى أركان العربة متجاوباً مع شخير

المسافرين المنبثين على الكراسى الخشبية.

وهما وحدهما كائنان يقظان، تتبادل العيون النظرات فتحيل المكان إلى نور خالص، نور لا مصدر له، يندفق من حمى القلبين المتجاويين.

كيف هبطت على أرضى فجأة؟ لم أرها صاعدة من باب العربة، لم ألحظها بين الركاب من قبل، حين تهيأت للراحة ومددت جسدى على الكرسى راكناً رأسى على جدار النافذة، أطلت علىَّ دون سابق إنذار.

وحيدة بين الكرسيين، تلف، بدنها المرسوم بحكمة عباءة سوداء، وعلى رأسها طرحة بلون الليل الواقف خارج النوافذ، تهبط منها خصلة ناعمة تضئ الجبهة المشعة بنور قمرى هادئ، تأخذ من الحاجبين، وتمنحها حضوراً قوياً، يؤكد نور العينين السوداوين المتاحين كبئرين يدفقان ماءهما بكرم، كأنها هبة الهية يرتوى منها السابلة حين يحرقهم عطش الأسفار الطويلة.

لا أستطيع المكوث أطول من هذا..

سأتقدم منها لأكون شريك الرحلة، وليكتفى على إبراهيم بشخيره، إنها مهيأة للحوار مع وحدتى..»

مد الأستاذ دسوقى يده إليها منحنياً نحو وجهها فالتقط أنفه رائحة الريحان والنعناع فى مزيج يجلب من الطفولة أروع عطورها، وسحر بيدها المرفوعة إليه باستجابة هادئة لا منكورة، ولا تدعى المنع، رفع يده إلى أعلى فقامت المرأة بشموخها المذهل، سارا معا بين الصفوف النائمة، أراد أن يوقفها بين العربتين، يجعل ظهرها إلى الجدار، ويلقى ببدنه كله على صدرها المرحب، ثم يرفع شفتيه الجافتين إلى برغم الشفتين، ويرشف من خمرهما حتى يسكر، برغم أنه لا يعرف السُكر إلا من قصائد الشعراء القدامى والمحدثين، يريد لوجرب طعم الرضاب من «لما» الحبيب، يريد لو يهرص

على السطح، بان ذيلها الطويل، يبدأ من الخصر، وهو يبرق بأصداف متراكمة من ألوان الطيف، فصارت امرأة غير مشتهاة، امرأة مطموسة الفخذين، لا شئ بينهما يغرى بالاقتحام، ذيل أسطوانى لا يمكن السيطرة عليه ينتهى بزعنفة كبيرة منشورة كمروحة خطرة، تهدد بالعنف فى كل حين، وانفرط شعرها الطويل فى موجات ليلية، يهبط إلى ظهرها العارى مرة، ويصعد إلى أعلى كانه يخترق سطح الماء. ليدل عليها قال: هل أنت عروسة البحر؟

– ألم تعرفنى حتى الآن يا دسوقى؟

– لم اتشرف بك من قبل.

– يا ندل.

واقتربت منه لتلمه بين ذراعيها المزخرفين بأصداف النهر، وصار الوجه فى الوجه، واعيد تشكيل سيمائها بغير ما كانت عليه.

– سميرة!!

– كنت أظنك ستعرفنى من أول نظرة.

– كانت امرأة غيرك.

– يا خائن إنك تجرى وراء كل غواية.

– كيف!! وأنا كل جهدى من أجل البحث عنك.

– لماذا استجبت لها حين جرتك من يدك؟

– كنت ابحث عنك فيها.

– أتلعب بعقلى يا دسوقى؟

– حاشا لله.

– تعال..

دفعته أمامها رافعة إياه من ياقة بدلة عرسهما، وأخذته المشاهد فى قاع النهر، وأذهله وجود القطط فى كل مكان، تخرج من كهوف طينية على جانبى الشاطئ، أو تصعد من حفر عميقة بباطن الأرض.

كل هذا يكفى لإرعابه إذا هبط إلى هذا العالم الغريب وحيداً . وجود سميرة –ولو على هيئة السمكة– كاف لإزالة الخوف من قلبه.

وصلا أخيراً إلى منصة يجلس عليها كهل سمكي مهول الجسد. تسقط على كرشه لحية بيضاء ناصعة، ويقلب بيد مرتعشة رقائق جلدية فردت أمامه بينما تصدر الميزان خلفية المنصة ترفعه امرأة معصوبة العينين.

استغرق الكهل وقتاً طويلاً فى النظر إلى أوراقه بينما يد سميرة لم تفلت الياقة، ووقف دسوقى مسلماً أمره إلى الله، يميل برأسه الضخم إلى أسفل عاقداً يديه على بطنه.

– سميرة.. متى نعود إلى شقتنا؟

– هووووش.

ورفعت أصبعاً رقيقاً إلى طرف أنفها.

– لا تتحدث فى صمته.

– أمرك يا سميرة.

رفع الكهل رأسه بعد وقت طويل، سائلاً:

– أين المتهم؟

– ها هو يا أبى.

– اطلقه.. اقترب.

تقدم دسوقى من المنصة العشبية الغامضة.

– لماذا شكوتنا إلى إمام الخرابة؟

– لم أذهب إليه مباشرة لقد استشرت الشيوخ فدلونى عليه.

– شيوخ!! ومادخلنا بالشيوخ؟

– دلنى حارس المعبد على الشيخ أبو النجا، وأبو النجا دلنى على الشيخ هداية، وهداية دلنى على إمام الخرابة.

– ولماذا كل هذا الجهد؟

– من أجل العثور على سميرة.

– سميرة!! ومن هى سميرة؟

– زوجتى التى تقف إلى جوارى الآن.

– يا ضعيف النظر، تخلط بين هيئة الرجل والمرأة.

– سميرة ابنتك يا ملك الماء .

قهقه الرجل عائداً بظهره إلى الوراء.

– اختلط على ابن أدم، فلم يعد يعرف الفرق بين الذكر والأنثى.

انظر إلى يمينك.

رفع دسوقى رأسه، والتفت إلى يمينه ليواجه وجه صلاح الساخر، يرفع ضحكاته لتتجاوب مع قهقهات ملك الماء.

واندفعت إلى بدنه قوة حيوانية لا بصيرة لها، استحال إلي أسد مرة، وفهد مرة، ونمر مرة، وظل ينهش فى الجسد العارى الذى سقط إلى طين الأرض.

كان يريد التهام حنجرته، ثم يفقأ عينيه ليطفئهما إلى الأبد، وأن يبتر يديه فلا تعاونه على السباحة فى الماء، كان يود لو يقطع أطرافه، طرفاً،

طرفاً، ثم يذبحه بسكين بارد ليسيل دمه بطيئاً على صدره، لا راحة له إلا بالقضاء على هذا الغريم.

وسمع الصرخة القوية..

– يا صلاح خذ هذا الرجل من ترعتنا هذه إلى النهر الصغير ثم إلى النهر الكبير لتلقى به فى بحر المالح لتلتهمه الحيتان، وننتهى من جرائمه، فلا يقدر على تقديم شكوى لشيوخه البلهاء..

– أمرك يا مولاى.

تمكن صلاح من السيطرة على دسوقى، وكبل يديه ورجليه، بعد أن أصدر الأمر لنبتة تلتف على نفسها كالأفعى، نهضت النبتة من ظلامها، ومدت أطرافها نحو دسوقى بدأت بالساقين، بعدها شدت اليدين وخنقتهما معاً، وجرت الجسد الثقيل فجأة فسقط على الطين، وصاح دسوقى مستغيثاً..

– يا على..

ولأن أحدا لا يستجيب لصراخه، اعاد الصيحة.

– يا أستاذ على..

ولا مجيب.

من النهر إلي البحر

- إلى أين ستأخذني يا صلاح الكلب؟
- إلى حيث انفذ حكم سيدي.
- ما أنت إلا عبد مأجور.
- وما أنت إلا خاطف للفتيات العاشقات لغيرك.
- إرادة الله انقذتها منك، خطفك الموت قبل أن تهنأ بها.
- عاشت معك تعيسة تمنح جسدها، وابقت برغم قلبها مكنوناً على حبى..
- ستظل واهما، وستبقى فى شقائك تتحول من قط إلى كلب إلى ما شاء الله من مسوخ.
- المهم أنى لا أدعك مرتاحاً أبداً.

الحوار يدور بين الغريمين، وهما يسرعان نحو جهة غامضة، صلاح فى عربة، تنفر عضلات يديه وساقيه، يسير حافيا فوق عشب القاع، لا يحفل بالحجارة والزلط وقطع الزجاج المتناثر فى كل بقعة، ولا يلتفت إلى الأعشاب المائية التى تتماوج مع التيار الذي يحدثه اختراق الجسدين، ودسوقى يرتفع قليلاً عن القاع سابحاً كبلونة كبيرة مسحوبة بالحبل المكبل ليديه وساقيه،

تتثنى أطراف جاكتته على الجانبين، يتفادى الأسماك التى تخبط وجهه، وتقضم كفيه.

القاع ساكن تماماً، الحركة بين مائه الكثيف دون صوت، تسبح الأسماك بدفع الزعانف فلا يسمع لها نأمة، وصياح الغريمين يخرج كفقاعات متدفقة إلى أعلى، ودسوقى على دهشته، كيف استحال إلي كائن مائى، يتنفس فى عمق الماء إلى رئتيه ويسمع الآخر بأذنين مفتوحتين ، لا ينساب الماء إليهما بينما إذا استحم واخترقت قطرات من الماء أذنه فلا راحة له قبل أن يجففهما بالقطن، أو بقطعة نظيفة من القماش.

- لن تحظى بما أوهمت نفسك به يا صلاح.
- لقد انتهيت تماماً يا دسوقى، بعد قليل ستغادر إلى الماء المالح.
- هذا ما تتمناه نفسك اللئيمة.
- سميرة الآن فى أصبعى، أديره كما أشاء.
- الأيام بيننا يا نتن.

انزلق جسد دسوقى فجأة إلى أسفل، واندفع كلية مع ثقل الرأس، كان صلاح قد هبط قليلا حتى لم يبدو غير الرأس والكتفين، أراد دسوقى أن يفرد ذراعيه ليحمى نفسه من الغوص فى كتل الطين ولم يسمح القيد بهذا، فدار غصبا دورة كاملة، ثم دار دورة جعلت رأسه إلى أعلى، فأحس بالماء الأسود ثقيلا ومبهظا على بطنه الذى سحبت عنه الجاكتة إلى أسفل والتمت عليه الأسماك لتقضم أطرافها.

تأكد لدسوقى أنهما قد غادرا الترعة إلى النهر الصغير، فالإنحدار إلى العمق ضاعف الظلمة، والأعشاب استطالت، والأسماك زاد حجمها، والقاع لم يعد ملموسا، لا بالقدم، ولا بأطراف اليد، فسلم أمره إلى خالقه، وأدرك

أعاد التفكير فى كلمات صلاح «سميرة الآن خاتم فى إصبعى، أديره كما أشاء» حقا. موقفها غامض، وغير مفهوم. ها هى تصعد إلى القطار لتتخفى فى ملامح امرأة أمامه، ثم يصدر الحكم بالنفى إلى الماء المالح؟

هذا عبث بالقضاء يستوجب المحاكمة.

ثم كيف يتجنى على البرئ دون أن يسمع كلمة واحدة؟ ولماذا اخفى ابنته فى الوقت المناسب؟ وكيفى استحال هذا الصلاح إلى رجل شرطة ينفذ الأحكام؟

عبث.. عبث..

لابد من مقاضاة الجميع حين تتاح الفرصة، وبعد أن يفك الله أسرى من قبضتهم الجائرة.

الرحلة فى النهر الصغير طويلة.. ومملة، والظلام أحكم أستاره، يحس دسوقى بضربات الأسماك وملاحقاتها الملحاحة حوله، ولا يرى أجسادها المتناثرة.

هبط جسده مرة أخرى.

إذن مزيد من الأعماق، الماء يزداد ثقلا على الصدر، وعلى السمع، ويدفع المقلتين إلى الجحوظ كأنما يريدا مفارقة الوجه، والنفس صار بطيئا ومجهدا، «يا إلهى، كيف سيكون الأمر فى الماء المالح؟» الماء العذب هنا فى حدود البلاد التى أعرفها، كيف سينطلق جسدى وحيدا فى بحر لا نهاية له، شطآنه بعيدة، تصل إلى بلاد تعيش على أرضها أقوام وأجناس أجهل لغاتها، والبحر سيأخذنى إلى المحيط.. والمحيط إلى محيط، فأدور مع الكرة الأرضية إلى ما لا نهاية، فلا عودة إلى بيتى، ولا حياة مع سميرة أميرة قلبى، وملكة روحى؟

«ارحمنى يا أرحم الراحمين».

ضرب كتفيه حائط حجرى صلد.

فاندفع خفيفا كبعوضة إلى حائط آخر، أدرك أنه يمر عبر عين ضيقة لقناطر تحجز الماء عن الفرع الواحد حيث ينقسم النهر بعدها إلى فرعين، وقد صدق توقعه، إنه يحس الآن بالانحراف يمينا، فقد اختار صلاح الفرع الشرقى من النهر.. وهذا أفضل، ما بين مصبى الفرعين مساحة من أرض البلاد التى ينتمى إليها، ربما عثر عليه أحدهم بعد أن يعتقه صلاح.

الشاطئان تباعدا، والقاع هبط بعيدا، وصارت الحركة فى الماء أكثر يسرا، والأسماك غلظ لحمها وإزداد حجمها كلما صعدا إلى نهاية الدلتا، وأحس بأن سرعة الجر لا يمكن احصاؤها. كان يسمع لهاث صلاح المندفع بكل طاقة بدنه القوى، كان يجرى مهللا باتساع المساحة، يريد إنجاز فعلته بأسرع وقت ممكن ليعود إلى معشوقته، بعد التخلص من دسوقى.

بعد ساعة تقريبا لمست ملوحة الماء طرف لسانه، فاضطرب قلبه، رغم توقعاته المسبقة، اقتربت نهايتك يادسوقى فهل ستستسلم؟

الملوحة تتكاثف، وتحرق شعيرات الأنف، وتدمع العينين، والجسد صار أكثر خفة كأنما طرح من وزنه النصف، وراح يصعد إلى السطح كلما انسحبت عذوبة الماء.

الماء طبقة شفيفة أسفل ظهره، وجسد صلاح بان نصفه الأعلى، التفت إليه ساخرا.

- استعد لرحلة النهاية.

- العبد فى التفكير والرب فى التدبير.

- هأ هأ هأ.. وصلنا بالفعل.

صعد صلاح إلى الشاطئ ليجر الجسد المكبل بالأصفاد، قاوم دسوقى، وتشبث بالطين الزلق، ولكن صلاح شده بقوة حتى ضربته بقايا جذور لشجرة عتيقة، أهلكها الدهر أو قطعها أحد من البشر ليستدفئ بخشبها.

دسوقى المقيد اليدين والساقين التف حول بقايا الجذر، ودار بجسده الملوث بطين الشاطئ كثعبان كبير، يقاوم ضربات الفئوس والمناجل من ناس يخشونه بينما ينفث سمه فى وجوههم.

لم يكف صلاح عن الجذب بعنف وكراهية تطفح فى كل عرق نافر من جسده، ودسوقى يصرخ نحوه:

- اقتلنى هنا، ولا تلقى بى إلى البحر.
- أنا لا ألوث يدى بدمك، أنا أنفذ حكم المحكمة.
- محكمة من يا مهرج؟
- يكفى أنى سأتركك ضالا من بحر إلى بحر ومن محيط إلى محيط.
- هذا ما تتمناه نفسك الخبيثة.. ياخطاف.

وراح صلاح يشد بعزم جسمه، ودسوقى يحكم التفافه على الجذور الضاربة فى أعماق الأرض حتى نال منه الجهد، وخشى أن تنحل عضلاته، فيسحبه غريمه إلى الماء المالح.

ظل يقاوم.. ويقاوم..

لم يهمد صلاح لحظة.. حاول الشد من الحبل، وحاول الاقتراب من الجسد ليفرده بعيدا عن الجذور، ثم أحس دسوقى فجأة أن مقاومته قد نفدت، وأنه يستجيب للجر نحو الماء العميق، نحو ماء بلا قرار، وعالم غريب عليه لا يعرف مكوناته، ولا يدرى شيئا عن الأقوام والأجناس التى تعيش على شواطئه، فصرخ بأعلى صوت: الحقنى ياعلى.

وكرر صراخه أكثر من مرة: الحقنى يا أستاذ على.. الحقنى يا أخى..

كلام فارغ فى المعجزات

- صلاح تانى يادسوقى؟
- عاوز يرمينى فى البحر المالح.
- وإيش جاب البحر المالح فى بلدنا هنا؟
- إنما أنا مستغرب من حاجة ياعلى!!
- إيه هى؟
- إنك طول النهار تصدع دماغى بحكاية المنهج العلمى ورغم ذلك تؤمن بالمعجزات.
- اضرب مثلا.
- إنك متأكد من وجود سميرة فى الشقة بعد الرحلة دى.
- دى شفافية يادسوقى، لا معجزة ولا يحزنون.
- ومعجزة إن الواحد يقدر يعيش فى الميه.
- إذا كان سمكة، أو مكونات جسمه مهيأة لهذا.
- طب وحكاية سيدنا يوسف وسيدنا يونس.
- المعجزات من موروثات العصور القديمة يادسوقى.
- يعنى فى الزمن دا من الصعب تلاقى معجزة؟
- كل يوم فيه معجزة فى الكشوفات العلمية.

– يا أخي متكبرش الموضوع، أنا قصدى على المستوى الشخصي.
– زى إيه؟
– إن الواحد ممكن يعيش فى الميه مدة طويلة من غير خياشيم.
– دا فى الأحلام أو علشان الدقة فى الخرافات.
– خليك فى غيك ياعلى.. بكرة تفوق وتعلم إن الله حق.
– والله ما أنا عارف مين الماشي فى غيه.
– أنت راجل مش عاوز تعترف بأية حاجة ذكرها القرآن.
– زى إيه يادسوقى؟
– ذكر الجن والعفاريت.
– ربما هى أمور حدثت فى الأزمنة القديمة من أجل الموعظة.
– وليه ما تحصلش فى زماننا.
– اضرب لى مثلا..
– أنا مش حكيت لك أمثلة ؟
– أنت يادسوقى واقف على الحافة بين الواقع والخرافة.
– يا سلام على الفسلفة.
– صدقنى.
– طب حكاية إنى أشوف العفريت بعينى وألمسه بيدى. اكذب نفسى وأصدقك؟
– اضرب لى مثلا يا دسوقى.
– أنت بتعاملنى كتلميذ فى الفصل، كل شوية اضرب لى مثلا.
– قص علىّ ما عندك..

– ماشي يا على.. بص ياسيدى، فى أول استلامى للعمل فى التربية والتعليم، اشتغلت فى قرية (أم الحوف).
– عارف يا دسوقى.
– اصبر علىّ.. أبوى اشترى لي عجلة تنقلنى من البلد لأم الحوف، وأنت عارف طبقا إن اللى يروح القرية دى يعدى على ترب البلد.
– أيوه..
– فى النهار ما فيش مشكلة، النهار ونس، الفلاحين ماليين الغيطان، ومواشيهم فى كل حتة، اللى ينهق واللى ينعر، واللى يضرب القلة، المشكلة فى الليل، طبعا بارجع قبل المغرب بكثير، لكن فى يوم لزم العمل الاستمرار لبعد العشا، وعملت ألف حسابَ للتعدية من قدام الترب، واللى حسبته لقيته، الغيطان ساكتة، لا بهيمة ولا إنس يوحد ربنا، والليل كابس، لا قمرة ولا نجمة فى السما.. وقرب شاهد طويل مدهون بجير أبيض لقيتها قاعدة، لفة جسمها بعباية سودة، وقدامها قفة كبيرة، وحاطة على وشها برقع له قصبة من الدهب، ونادت علىّ، قلت اعمل ثواب علشان أعدى بسلام.

وملت على ودن القفة ارفعها على رأسها، بعدما نصبت طولها اللى غطى على واجهة الشاهد كله، ومدت إيدها من تحت لترفع قعر القفة وألاقى الحافر طول كدا.. ودراع مشعر بيغطيه كم واسع، حطيت ديلى فى أسنانى، وقلت يافكيك، بعدما سبت العجلة مركونة على مصطبة الشاهد، وسمعتها وهى بتصرخ: نفدت ياابن الكلب.
– خلصت يادسوقى؟
– أنت شاكك فى كلامى؟

- بلا شاكك، بلا بتاع، حكايتك دى تضربها وتلغى منطقها الحكاية الهزلية اللى حصلت لعمدة (أم الحوف) نفسه. واللى البلد تتناقلها جيل ورا جيل.

- فكرنى بيها ياعلى.

- عامل إنك مش فاكرها علشان تحافظ على مصداقية حكايتك.

- احلف لك إنى نسيتها، ويمكن كمان ما سمعتش بيها.

- جماعة من الفلاحين كانوا جامعين محصول الدرة، وفرشوه على الأرض بعدما قشروه من غلافته، وكان غيطهم قدام مصرف الترب بالضبط، وكان لازم يسهروا على المحصول يومين على الأقل.

وفى ليلة سودة زى اللى حصلت لك لحوا عمدة (أم الحوف) راجع من البلد بعدما قضى سهرته مع أصحابه، راسه معمرة بأنفاس الحشيش، والخرج على ركوبته يفيض بخيرات الله. إيش برتقال، إيش أعواد قصب مقطعها عقل عقل. وحاشرها على الجانبين، إيش هريسة وكنافة، والجماعة السهرانين مصارينهم قطعها الجوع، وفكروا فى الاستيلاء على محتويات الخرج، قلعوا هدومهم، ونزلوا المصرف، ودهنوا أجسادهم العريانة بالطين، ولبدوا للعمدة على الجسر متوزعين بين الشواهد لما مر من قدامهم، مشيوا وراه على الناحيتين يضربوا رجليه مرددين بأصوات مكتومة: مم.. مم.

والراجل من رعبه ما قدرش يبص وراه، كل اللى يقدر يعمله إنه يمد إيده لفردة الخرج يطلع اللى فيه النصيب ويرمى لهم، لغاية ما خلصوا على كل اللى معاه.

والركوبة أخذت طريقها إلى (أم الحوف) من غير ما تعرف إنها شايلة

ميت على ضهرها، وقفت قدام الدوار بحكم العادة، ولما جه الغفير علشان يستقبل العمدة لقيه منته من مدة، شاله لفرشته من سكات، وراح يصحى أهل البيت.

وفى الصبح لما خدوه فى النعش ليدفنوه، لقيوا مصاصة القصب، وقشر البرتقال، وعلب الهريسة قرب فرشة الدرة، وقامت خناقة لرب السما، وقع فيها ناس كتيرة، واستمرت حرب طويلة زى حرب داحس والغبرا، بين (أم الحوف) وبلدنا.

- غريبة!- الأغرب إنك تدعى عدم معرفتك بالموضوع.

- أنا ما بدعيش يا على.

- أنت غرقان لشوشتك فى موضوعك، ودا نساك حاجات كتيرة.

- اللى إيده فى النار غير اللى إيده فى المية يا على.

- الله يكون فى عونك.

- وفى عونك يابتاع المنهج العلمى.

- بلاش الطريقة دى معايا يادسوقى.

- ياشيخ روح.. كل حاجة أحكيها لك تسخفها.

- أنا أسخفها يادسوقى والا بصحح طريقة تفكيرك.

- أنت اللى حتصحح طريقة تفكيرى ياعلى؟ على العموم يا أخى راعى فارق السن، أنا أقدم منك فى التربية والتعليم.

- هى الحكاية بالسن يادسوقى؟

- أمال بإيه أيها العالم النحرير؟

- المهم بنفكر إزاى.. ثم هل أنا باتدخل فى تخصصك؟

- هو أنت بتسيب تخصص ما تحشرش بوزك فيه.

– دى أخرتها يادسوقى؟

– على العموم كتر ألف خيرك.. يا أخى ربنا لما وزع الأرزاق ما حدش عجبه رزقه، ولما وزع العقول كل واحد عجبه عقله.

– خليك معجب بعقلك يادسوقى، لما حتروح فى داهية.

– ما عاش اللى يودينى فى داهية ياعلى.

– ياسيدى إن شاء الله أروح أنا فى ستين داهية.

– أنت حر.

– طبعا حر أمال عبد.

– يا أخى حل عن سماى، خلينى أتنفس هوا.

– دى أخرتها يا دسوقى؟

– زى ما تحسبها.

– على العموم باقى على بلدنا فركة كعبة وكل واحد يروح فى حاله.

– يروح فى حاله فين وأنت لازق لى فى المدرسة وفى البيت.

– أنت رافض الزمالة والجيرة كمان يادسوقى؟

– ما أعرفش.

– رغم ندالتك مش حسيبك فى أزمتك أبدا.

– أنت عاوز تكسب ثواب على أكتافى.

– الله يكون فى عونك مشكلتك ما عدتش مخلياك تعرف الطيب من الخبيث.

– يعنى أنت الطيب وأنا الخبيث.

– يادسوقى ماتقفليش على الواحدة، ثم إنى ما قلتش حاجة من دى.

– أمال قصدك إيه؟

– أنت بتقول الشكل للبيع يا ابنى.

– ابنى!! أكبر منك سنا، وأعرف أضعاف ما تعرف، غيرشى إنى ما باستعرضش على الناس.

– قوم يا دسوقى القطر داخل على بلدنا.

– لو نزلنا.. أنت من سكة وأنا من سكة.

– إزاى وإحنا فى بيت واحد، وطريقنا واحد.

– الحقيقة طريقنا مش واحد.

– الله يهديك ياابن الحلال.

شده من ذراعه، فقام دسوقى يترنح بين صفى الكراسى، فمد يده ليتساند على خشبها محاذرا السقوط، رأسه يدوى بصداع حاد، وجسده المجهد لا يسعفه فى مقاومة التنقلات المفاجئة لتحويلات قضبان الحديد، ولمح نور المصباح الأول لمدينته، وتوالت مشاهد الشارع المضئ لتظهر الأبنية الحكومية التى تتصدر مدخل البلدة. الوحدة البيطرية، الساحة، المعهد الدينى، ثم مبنى المحكمة، والمدرسة التى يعمل بها هو ورفيق رحلته على إبراهيم.

وفى هذه اللحظات بالذات رآه يقفز من الخارج عبر الباب المفتوح، نظر إلى دسوقى بتحد، ولعق شاربه الكثيف بلسانه نظر دسوقى حوله عله يعثر على عصا غليظة تفلق رأسه الأسود الضخم فلم يعثر على شىء أبدا، واستجاب لضغط الأجساد التى أرادت الاقتراب من الباب، انتحى جانبا بين كرسيين فارغين وهو يتابع ذيله الغزير الشعر يسعى بين الكراسى، دون أن يرفع عينيه عنه.

أخيرا صرخت عجلات القطار، وشعر بقوة الحديد وهى تمسك بالحديد لتقف على الحديد بين رصيفين ساكنين تحت مظلات مدرجة ترفعها قوائم حديدية صدئة، لها ظلال حادة، دفعتها إلى الإمتداد.

الإضاءة القوية لمصابيح المحطة، وكثير من الأضواء الزاحفة من فوق السور لأبنية مرتفعة قليلا، تؤجر أدوارها السفلية لمحلات الطعام والمقاهى ومحلات البقالة والصيدليات التى لم تزل مفتوحة لاستقبال الغرباء العابرين للبلدة، وبانتظار أبنائها العائدين من المدن البعيدة.

استجاب دسوقى للدفع وهبط إلى الرصيف مع الهابطين. ألقى نظرة نحو نوافذ القطار المفتوحة، ورآه يثب بين الكراسى الفارغة ليخرج من الباب الأمامى، ويسبقه إلى هناك. تقافز فوق الشريط الحديدى، ثم اختفى جسده الأسود وراء بناية (البلوك).

عودة التراب

حين هبط أرض الجزيرة رأى نفسه تسير وحيدة فى شوارع ساكنة، الأبواب مغلقة، والنوافذ مسدودة، وعلى الذى كان يسير إلى يمينه، لا وجود له، تركه فى مكان ما، وتردد فى سمعه صوت خطيب لمسجد بعيد، فى حى آخر، من الجهة الغربية.

هيئ له أنه كان يرفع شيئا فى يده، واختفى فجأة،

هل كان قرطاس فاكهة؟ هل كانت ربطة فجل وجرجير ابتاعها من امرأة تفترش المساحة المسورة أمام مسجد الحى؟ هل أحضر شيئا ما؟ أم أن العادة هى التى دفعته للشعور بذلك؟

كان الأستاذ على معه فى مكان ما، هل كان إلى جواره فى الصف، واختفى عند عتبات المسجد؟ أم كان يقتعد كرسيا قريبا منه إلى جوار نافذة تطل على مشاهد حقول مزهرة تتراجع إلى الوراء، سريعة، خاطفة، وهى قريبة، وبطيئة هادئة إذا نظر إلى أفقها البعيد؟

وهل ما رآه عبر هذه النافذة شمس المغيب الكبيرة الحمراء أم شمس ما بعد الظهيرة المتوارية خلف البيوت العالية؟

نظر إليه أهل البلد باستغراب،. قالوا: ماذا حدث لدسوقى؟ لقد ذهب عقله فجأة.

كانوا يضربون الكف بالكف حين يرمون عليه السلام فلا يرد.

– لا ليس هذا عهدنا به.

– معمول له عمل!!

– الوحدة ياولداه.. والولية قاطعة الخلف.

وتأمل أهل الحي وجهه المذهول، وقال واحد منهم.

– طار عقله مرة واحدة.

– كنت أصلى إلى جواره، فلم يكف عن الكلام مع نفسه.

وحين التقى أحدهم بالأستاذ على ما قال له.

– خد بالك من صاحبك.

– ما له؟

– أصابه اللطف.. ربنا ياخد بيده.

وتوالدت الحكايات عن الأستاذ دسوقى، لم يسأله أحد منهم عما يشغله، وهو رغم تحديقه فى وجوههم، لا يرى وجها بعينه، انكفأ على ذاته، وظل يغلق دوائره حتى تلاشى فى دائرة صغيرة، شكلت بؤرة عالمه الضيق.

يدخل الآن الشارع، ويتضاعف الصمت والسكون.

ربما تسرب صوت مذياع من هنا أو هناك. هل ما يسمعه الموسيقى المميزة لبرنامج (على الناصية) أم أنها تراتيل دينية بصوت الشيخ طوبار تمهد لأذان العشاء؟

اختلطت عليه ساعات النهار..

ولا هم له غير الوصول إلى البيت، ليأكل لقمة ترد له عافيته، ثم ينسحب إلى فراشه، ليمدد طوله بين نور خافت يعيد للروح انسجامها، وتوحدها.. وتكون سميرة إلى جواره، باسمة فى حالة الرضى، تطلق شعرها الأسود

الرائع بعد أن تعتقه من منديلها الذى يكبح جماحه طول النهار، يرفع يده لترتاح على النحر الوضاء، ويهبط بها بهدوء إلى ليونة الثديين، تتسع بسمة سميرة، وتتأوه فى دلال، ثم يهبط بها إلى ذروة التلين العظيمين، ليحوم بسبابته بين الحلمتين النافرتين، فتنزلق سميرة إلى أسفل، منسابة البدن، ويميل نحوها ليخطف القبلة، فيواجه لهاثها الحميم، يسعى باليد الأخرى ليحكم السيطرة على الجسد المتطلب الذى يصرخ فيه «هيئت لك».

نشطت ذاكرته لبعض الوقت، واندهش من نفسه، ها هو يستعيد نفسه من طهارة الصلاة والقنوت ليلج إلى رغبات الجسد، أين كانت تكمن هذه الرغبة، وهو منصت فى وقار إلى الخطبة التى تهدد بالسعير والنار التى إذا قيل لها «هل امتلأت»؟ فتقول «هل من مزيد؟» وأين هو من رعب الاستغاثة بالمهل الذى يشوى الوجوه؟

الحديث عن النار يشعل ناره الخافية، ناره الخاصة التى تتقد بالغيرة، والشك، وممن؟ من غريم مات منذ سنوات، لا يكف عن التحدى، فى المنام، فى اليقظة، فى كل أوان كلما وقف أمام الصف يشرح الدرس للتلاميذ، فى سرحاته وهو سائر فى الشارع، فى كل مكان يقطعه.

يراه أمام عتبة البقال الذى كان يتردد عليه قبل رحيله، بشرفة بيت أبيها الذى تطل منها عليه، بالشجرة التى كان يتوارى خلفها ليرقب إشارات صلاح إليها.

دفع البوابة الحديد فزعقت مفاصلها الجافة، وهرعت فى رعب قطط كثيرة كانت تبحث عن قوتها فى صفيحة الزبالة، المقلوبة فارتجف قلبه من مروقها المذعور «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وقف قبل الدرجة الأولى ليلتقط أنفاسه، ثم بدأ يرقى السلم بهدوء، مسندا يده على السور، حين بلغ البسطة، نفض قدميه فى الدواسة الخشنة، واطلق كحة غليظة تنبه إلى وصوله.

ترك الباب مواربا بانتظار عودة الأستاذ على بالفجل والجرجير، فربما يكون قد حمل إليه نصيبه عند خروجه من المسجد.

رآها جالسة على الطاولة، رأسها على راحة يدها، وأطباق الطعام موزعة أمامها، رنت إليه، وانشرح وجهها فى بسمة طيبة، قامت إليه لترفع عنه الجاكتة فصار طليقا فى بيته بالجلباب الأبيض المزهر والطاقية المخرمة.

– تغسل إيدك؟

– مافيش مانع.

وقفت عند الحوض حاملة الفوطة على عضدها، ومدت له يدها بالصابونة المعطرة، لما انتهى من ذلك جلس أمامها على الطاولة يتأمل وجهها.

– كنت فين المدة دى ياسميرة؟

– ماسيبتش البيت.

– أمال زى ما يكون ماشفتكيش من أسبوع.

وازداد وجهها انشراحا.

– الهى ربنا يخليك لىّ على طول.

– أوعى تسبينى تانى ياسميرة.

– ما استغناش عنك أبدا يادسوقى.

ولفت انتباهه حركة الباب الموارب، فقد فتح على آخره فجاة.

قال دسوقى: ادخل ياعلى. فدخل قط أسود له شعر لامع، وعينان

واسعتان بلون فسفورى يضىء فى الظلمة الخفيفة، فى ردهة الشقة، لم يحفلا به لأنهما معتادان على دخول وخروج القطط من كل صنف وراحا ينقلان اللقيمات إلى أفواهمها، ويلوكونها دون صوت.

وثب القط إلى الطاولة ليختار له مكانا بين الصحون، لم يهتم بالطعام اكتفى بتثبيت حدقيته على وجه سميرة، وأطال التحديق، فدهش دسوقى من أمره، وقال له مازحا:

– عجباك.. خدها.

فاختفت سميرة، واختفى القط فى الحال.

وترك دسوقى وحيدا فى الشقة مثبتا يده بالملعقة بين الفم والمائدة.

«كل أيامى غيبوبة إثر غيبوبة
وكل أحلامى الليلية تتوجه
إلي حيث تلمع عينيك السوداء
وحيث تلمع خطواتك»

إدجار آلان بو

٢ - غياب فى الرمل

حين كنت التقط آخر جزء من كتفك وأنت تمرقين من بوابة المغادرة أحسست بعظم المسئولية التى ألقاها علىّ غيابك، مسئولية أن أحاورك على الورق.

حتى اللحظة لا أصدق، لا أصدق أن البراح الذى كان بيننا ضاق إلى هذا الحد، ورقة بيضاء غبية تريدنى أن أختنق واختنق لأقول لها كل ما كنا نقوله معا.. هل أدركت المأساة؟ مأساتى بشكل خاص.

كنت ملء السمع والبصر والفؤاد جميعا، وصرت لكى أحادثك اتهيأ لفعل الكتابة ذاته، لا أتهيأ لك.

ها أنا أنظف نفسى، واتطهر، وأغلق الأبواب والنوافذ لأمارس الكتابة، لا لأمارس متعة الحديث إليك.

إن الفصحى غبية لا تستوعبنى، والورق صغير صغير. لايحتملنى.

هل صرت أنا كأحد الشخصيات القصصية علىّ أن اتقمصنى لأكون كما تعرفيننى، إن المهمة شاقة للغاية، وحتى الآن أنا لا أصدق أننى أكتب إليك.

فتحملى اضطرابى، وقلقى، ياحبة القلب.

حين انفصل عن الناس، أراك إلى جانبى، أحادثك بلغة الطفل، أمسك بذيل فستانك، ألهث وراءك وأنت الأم الرؤوم تحنو علىّ بنظراتها، وتستزيدنى واتدفق، اتدفق لأنى لا أكون نفسى إلا معك.

لا استطيع المواصلة، لأنى بكيت.. فسامحينى حتى اعتاد فراقك.

هل أحسدك أم أحسد نفسى؟ أأحسدك لأنك تقيمين فى مكان لا تحملى له ذكرى واحدة، أم أحسد نفسى لأنى أعيش فى أماكن مشحونة بالذكريات؟ أراك شجاعة، وأرانى ضعيفا، فدعينى إذن أحسدك على فراغ دنياك الجديدة من كل ذكرى.

جاءنى التليفون بخبر وفاة الخال، الأحد ١٧ / ١٢ فاضطررت للعودة فى غير الموعد الذى قررته لنفسى، وصلت مساء الثلاثاء، فى الثامنة ليلا كنت أخطو نحو بيتنا، يقينى الواعى يقول إنك سافرت، وعينى التى تمسح شحوب الشوارع تعلم أنها رأتك متجهة إلى الطائرة، وأذنى تقر بأنك تحدثتى مرتين من الخارج.

أن أكون وسط أشياء شقتنا الصامتة، فهذا شىء آخر، ها أنا أزحف بثقلى فوق الدرج، وأخرج المفتاح ليواجهنى الصمت والظلام، أضأت النور الخفيف، فحملقت فىَّ الأشياء مشفقة علىَّ، كلها اجتمعت تواسينى، كنت لا أعلم أن لهذه الجوامد لغة، دبت فيها الحياة وتكلمت، نطقت بلغتنا، لغتى أنا وأنت، حكت قصتها معنا، كيف اخترناها، كيف اشتريناها، كيف استحالت من سلعة التاجر إلى شاهد رفيق على حياتنا، فصارت أجزاء من لحمنا الحى معلقة على الجدران، وموزعة فى الأركان، صارت تضاريس نابضة لجغرافية حياتنا، حين أوجد بينها يتكثف وجودك، فأرى فى الطيف المستحيل حياة كاملة، تعيش معى، نتنفس نسمة واحدة، هنا كنت تجلسين، هنا قلنا معا كذا وكذا.. وهنا تحدثنا سويا فى الموضوع الفلانى.. وهنا.. وهنا.. وهنا.

وانتظرت قدومك.. واستفزت حواسى جميعا. هل هذا خطوها الرفيق؟ انظر من العين السحرية، فيصدمنى الجدار المصمت، فأقعى منهارا على طرف الكنبة.

هل سأتنفس كل هذا الفراغ؟ ماذا أفعل؟

لقد دخلت إلى بيتنا خلسة، لأكون وحدى معك.

ولكنى سأضطر للهرب منك، ومن حضورك الطاغى.

انعطف إلى دار أهلك فيحوط بى أحباؤك، إنهم يشفقون على حالى، نظرات العطف لا أطيقها، وأراك على طرف سرير الأم الراحلة، فى مكانك المفضل بحجرتها، فاهرب منك مرة أخرى، هل أعود إلى شقتنا؟

سأبتاع عشاء لابد، وسأعمل حسابا لكل شىء.. هنا وفى القاهرة، وفى كل مكان أنت غائبة عنه.

دار الخال حزينة بعد أن غادرها، سريره فارغ. واللمبة تصب نورا أصفر على مذياع يطلق الكآبة فى سحائب سوداء.

هل أصحب أحدا ليقضى معى ليلتى، إننى أخاف منك، فأنت هناك فى الشقة وحيدة، وأنا أخاف منك، لأنى أراك، ولا أمسك بك.

وبرغم كل شىء سأعود، وأواجهك، وسأهتف فى وجهك:

«لماذا أنت بكل هذه القوة فى غيابك؟».

★ ★ ★

وحشتنى خالص خالص ، أخبارك إيه ياترى؟

وحشنى كلامك، صوتك ، حكاياتك، لساتك.

صوتك فى المكالمة الأخيرة كان حزيناً ، أنت عاوز تزعلنى؟

لازم تكون قوى، إحنا أخذنا القرار ولازم نتحمل، وربنا يوفقنى.

من ناحيتى اطمئن خالص، أنا كويسة، كل شىء مجاب والمكان كويس، والعيشة حلوة، لاينقصنى إلا وجودك بقربى.

المهم .. خلينى أحكى لك عن رحلة السفر ، من ساعة وداعك الذى لن أنساه، فقد كنت متماسكة غصباً عنى، متبلدة حتى لا أنهار. المهم دخلنا صالة الانتظار ، ومنها دخلنا الطائرة مباشرة ، وكان مقعدى بجوار المدام (الحاجة سابقاً) كانت لحظة انطلاق الطائرة صعبة جداً.

وصلنا بالسلامة الساعة العاشرة، المطار كله زحام وبه نافورة فى الوسط، ولكنه فج.

كان فى انتظارنا الدكتور زوج المدام، طويل عريض، يرتدى جلباباً أبيض فوقه جاكت أسمر، وعلى رأسه عقال، ركبنا سيارته، وسرنا فى الطريق، يشبه الطريق الصحراوى فى مصر، ولكنى اكتشفت أن كله كده. طرق ممهدة فى وسط الصحراء.

وصلنا البطحاء، حيث المستشفى، وهو مشهور فى المنطقة، كل مرضاه من اليمنيين الشماليين العاملين بالمملكة، المبنى عبارة عن عمارة من خمسة أدوار، الثانى والثالث العيادات الخارجية والأشعة والمعمل وطبيب الأسنان ، الدور الرابع والخامس سكن الأطباء.

شقة الطبيبة والمرضات بها انتريه وتليفزيون ملون وڤيديو وأفلام هندية وفيلم الخطايا وحجرة خاصة بالطبيبة عبارة عن سرير ودولاب ومكتب وبها مكيف هواء.

المرضات فاطمة من الإبراهيمية وثريا التى أرسلت معها الخطاب من الشرقية، وشغالة من كفر الشيخ، أما الدكتورة القديمة فهى أنسة ستتزوج

بعد نزولها، اسمها الهام، وهى من دمياط.

فى الصباح التالى نزلت العيادة مع الدكتورة إلهام، اعطتنى المدام - وليس الحاجة ، هنا مدام فقط، وهى حاجة فى مصر، لاتنسى - اعطتنى ٥٠٠ ريال، ارسلت عاملاً بالمستشفى ، يشترى لى الخضار والفاكهة واللحمة وكل مااحتاجه.

حبيبى «مشكلتى الوحيدة هى الخروج ، فهنا ليس لى حرية الخروج إلا بإذن المدام فهى الكل فى الكل لذلك أول مكالمة طلبتها من مكتب الدكتور زوجها ، كانت مجانية مجاملة، لما أردت الاتصال بك ثانية طلبت النمرة لعمل فاتورة ، ثم سمحت لى بالخروج والكلام من الخارج براحتى ، ودى أول مرة اخرج، فالخروج بالنسبة لى فيه شوية صعوبة، يمكن بعد كده يكون أسهل بعد أن اتعرف على البلد ، وكذلك تثق بى المدام.

سوف اكلمك يوم عيد ميلادك، بعد التاسعة ، كل سنة وأنت طيب، وعقبال مائة سنة.

إن لم استطع مكالمتك حاول تستقر وتهدأ نفسياً وتتعود على عدم وجودى لمدة عام. أو عندما يريد الله أن نلتقى حيث أنه ليس بيدى أى شىء، فهنا أنا مسيرة وما أطلبه لايجاب بالسرعة كما تتصور ، وجود الزوج يؤخر العمل كما يقولون ، ولكن يمكن استقدامك فى زيارة. الدكتورة إلهام لم تستطع استقدام زوجها للعمل، فاضطرت للرجوع بعد السنة ليتم زفافها فى مصر.

حاول تكييف نفسك على كده، أما أنا فأنت تعرف زوجتك صبورة جداً ويمكنها أن تعيش فى أى مكان وتتحمل كل شىء، فلا تفكر فىّ ، ولا تحمل

همى.

ارسلت لك الخطاب مع الممرضة ثريا، واتعشم أن تطمئننى على نفسك دائماً بالخير، وأن تكتب لى أخبارك أولاً بأول، وأخبار التليفون.

سأستلم العمل يوم الأربعاء وستسافر الدكتورة إلهام يوم الخميس.

★★★

أخاف أن اعتاد فراقك ، كنت أقول لك إن الإنسان قادر على التعايش مع كل الظروف، حتى السجين يعتاد حياة السجن، يبدو أن الكلام غير الواقع، فالحياة تريد أن تسحبنى فى تيارها المنساب، وأنا أقاوم، لا أريد الإعتراف، ولا أريد الإقرار بحياتى التى أعيشها بدونك..

أنت معى فى كل لحظة، أصحو من النوم فأقول لك «صباح الخير» وتكونين بصحبتى على المائدة، وانتظر قدومك، وافتح لك الباب، وتخلعين الثوب الأسود، واجعلك تجلسين أمامى على كرسى الانتريه، ونشاهد التليفزيون معاً، وفى آخر السهرة أدخلك معى إلى الفراش ، ولا انسى طقساً من طقوسنا، حتى ضلفة الدولاب أواربها فلا ينعكس ضوؤها على وجهينا، واجعلك ترتاحين على صدرى، واضمك إلىّ.

وافتح لك أبواب أحلامى؛ لنكون معاً فى غفونا، كما كنا فى صحونا .. آه لو امتلك أحلامى ، لو تكون الأحلام بالإرادة!! كم الإنسان عاجز وضعيف!! إنه لايستطيع تخير أحلامه.

فى آخر زيارة لشقة البلد التقط أنفى رائحة مغايرة، أخشى أن افتقد ريحك.

إننى من حين لآخر ابث عطرك فى الغرفة، واطفىء الأنوار، وانغمس فى

الفراش حتى استحضرك.

وعبقرى هذا المصور ، إننى اشكره فى كل حين ، فقد جعلت الصورة الكبيرة الملونة - تنظرين إلىّ حيثما أكون، فى زاوية من الحجرة ، تنظرين إلىّ بابتسامتك على إطار التسريحة، واتحرك أمامها، وتنظرين إلىّ، واسعد بهذه الحركة ، وحين اتامل نفسى جيداً أود لو احطم كل شىء؛ لأننى اكتشف الخدعة، بعض الحياة فى الصورة غير كاف بالمرة .. اريدك كلك.. بل ربما - فى هذه اللحظة - تتجسد المأساة. كيف وقد كنت معى حياة كاملة اكتفى بصورة مكرورة ثابتة أخشى أن أملها!!

★★★

اكتشفت نفسى متلبساً بحالة حب حقيقية، وأنا مندهش لذلك، كنت اظن أننى أحبك حباً عاقلاً ومتزناً، فإذا بى أرانى مجنوناً ، اكتشفنى متلبساً فى أمور صبيانية لا يأتيها غير المراهق، وكنت أظن أن السن تجاوزها.

أنا الآن عاشق ولهان، أحيا فى غفلة، ومشدود بقوة إلى إنسان أعيد اكتشافه من جديد، إنسان سلبنى كيانى ، تهزنى الأغنية العاطفية بطريقة مختلفة، وابحث عنك فى قصائد الشعر، و..اعيد قراءتها على ضوء جديد، ولا اركز فى الكتب ذات الأفكار العميقة، فأنا اسرح فيك، ولا قدرة لى على الأفكار العميقة، فأنا اسرح فيك، ولا قدرة لى على التركيز، ويعجزنى التعبير عن حالتى الوجدانية التى أعيشها، وأحس بعبث ماكتبته - وما اكتبه لك الآن ، فاللغة لاتستوعبنى. ومازلت - حتى اللحظة - غير قادر على التعبير عما أحسه بالضبط.

★★★

إن الطريقة التى اكتب بها إليك تحيرنى، أمامى أكثر من صيغة أحاور بها نفسى، هل اكتب لها مايحدث لى يوماً بيوم؟ فأقول إننى لا أعيش أحداثاً خطيرة تستدعى هذا النوع من الكتابة، وبون شاسع بين الحكى التلقائى والكتابة وحدثى الوحيد والخطير هو بعدك عنى.

فأقول : دعنى أراقب مشاعرى ، واسجلها بينى وبين نفسى لحظة بلحظة ولكنى أخشى أن أعقلنها، فارجع إلى القول:

أعيشها وانغمس فيها إلى النهاية .

ولكنها ليست من حقى وحدى ، إنها من حقك أيضاً.

هل تعلمين أثر المكالمة التليفونية على نفسى؟

إننى اتأملها وأريد أن أقول فيها كلاماً.

هل تعلمين الفرق بين الغنى والفقير؟

إننى اعرفه الآن، كنت غنى بوجودك، وفقير جداً بفراقك، الفقر فى الورقات المكتوبة، وفى الثوانى المحسوبة علينا فى المكالمة، والفقر فى فيض ماأحسه، ولا أجد له سميعاً.

قلت : لا اكتب لها إلا حين أريد ذلك.

فخفت أن أسبب لك القلق بكآبتى، لأننى لا أريد إلا حين يستحوز علىّ الشعور بغيابك.

قلت : ساكتب لها ما يبهجها، اقص عليها قصص الحياة من حولى بطرائفها.

وأخيراً .. قلت إننى ساكتب لها كل هذه الحالات، ، وفقاً للرغبة، ودفعاً للشوق الذى يمسك بخناقى، واستلهاماً للحكايات التى كنا نرويها ، ساكتب

لها حتى عن الكتاب الذى اقرؤه لتشاركنى فيه، بل ربما ساقتبس منه ما أريدها المشاركة فيه .

قلت : لن اضع قاعدة بينى وبينها، وفى النهاية عليها أن تتحملنى، لأننى لن أزيف نفسى واكون شخصاً آخر غير الذى تعرفه .

★ ★ ★

لن أغفر لنفسى أبداً قلة حيلتى ، لولاها ماكنت خارج الوطن لولاها ماعانيت حرمانى منك. الآن أنا نادم، واطعن خيبتى كل ليلة بسكين، لاقتلها، وانتهى منها إلى الأبد، أين كنت حين استطاع الشطار تأسيس بيوت جميلة لزوجاتهم؟ وأى دروشة عبأت عقلى بالضباب فلم اقترب من الحياة بالقدر الكافى؟ كيف عجزت عن حلم مشترك يجمعنا، فى عش لائق يسيجه أمان المال؟

هل كنت استطيع لو أردت؟ ربما!

أرى أنك وحدك تدفعين ثمن عجزى اللعين. كيف تحملت أن أراك تسعين بين المكاتب لتنهى أوراق الرحيل؟ هل كنت مغبياً؟ هل كنت راغباً؟

جريمتى لاتغتفر .. ولن يمسحها ماء بكائى الأزلى.

هل وطأة هذا الشعور هى مايجعلنى أراك بهذه الصورة فى أحلامى لأتعذب كل النهارات الماضية. والمقبلة فى الأحتمال؟

مرة أنا أمام البوتاجاز، فى مطبخنا، والوقت كان موعد غذائنا المعتاد، أهيىء لى ولك الطعام، لأنك تأخرت بعض الشىء، وتدخلين على من باب الشقة المفتوح، على رأسك إشارب رمادى، وتحملين حقيبة كبيرة، وتتقدمين نحوى، وأنت تتعثرين فى ثوب طويل، وكأنما قلت لنفسى : هى بالضبط كما عودت نفسى على رؤيتها.

كان على وجهك تعبير ما غامض ، ولكنه يضع مسافة بيننا ، كانت الحالة تتراوح بين شعورى بغيابك فى بلد آخر وشعورى بعودتك المعتادة، فى نفس الموعد، وغلبنى الشعور الأول، تأكدت أنك قادمة من البلد الآخر، وارتميت فى حضنك، وفاض البكاء المكتوم، وأنت استسلمت لى بحياد ، فازداد بكائى.

وأفقت من الحلم رغم أننى ظللت لفترة طويلة - وأنا فى وعيى - اسمع نشيجى.

تنثال على أحلام متكررة، على نفس الوتيرة ، بصورة مختلفة وإن كان الشعور بنفس الحالة بتنويعات مختلفة هو الدائم والمستمر.

ورأيتك مرة كأنك عائدة، وتمددت إلى جوارى مرهقة، وثبت نظرك بعيداً فى السقف، ورحت أداعبك لاستعيدك إلى ، وجعلت من نفسى بهلواناً علك تبتسمين، ليشرق وجهك، واستعدت جديتى، وجرؤت على السؤال: لماذا عدت؟ ألم يعجبك العمل هناك؟

وانحدرت دموعك الصافية فى حبات كبيرة بللورية ، تنحدر متماسكة على خديك، وهىء لى بأنى استطيع الإمساك بها، حبة حبة، وذهبت إلى مكان آخر بعيداً عنى ، ونما بداخلى الإحساس بالذنب.

وفى الصحو لا اكف عن التساؤل عن معنى هذه الأحلام، هل أعود إلى مصطلح الجدات فى تفسير الأحلام واستغنى عن عقلى؟ إن عقلى لايسعفنى، ففى المواقف التى يستسلم فيها الإنسان لضعفه لايملك إلا العودة إلى فطرته.

قولى لى .. هل أنت حزينة بالفعل؟ هل تعانين من شىء ما؟ أم أن أحلامى من داخلى؟

لو حاولت أن تريحى ضميرى بإيجابتك التى أعرفها سلفاً، فأين المفر من نفسى اللوامة؟

★★★

علمتنى الصمت والتأمل والنظر إليك مكتفية بالإستماع والإستمتاع بكل شىء فيك، صوتك، حكاياتك، مندهشة مرة، ومعجبة مرة أخرى، بلا ملل. دائماً أريد المزيد ، وعندما تصمت أريدك أن تبدأ من جديد، دائماً مشدودة ومنصتة، بلا تردد.

حتى خطاباتك أردتها أن تتكلم ، دون أن أرد، فأنا اقرؤها وأتأملها، وانظر ثانية بتعمق، واحتضنها، ثم ابكى ، ولا استطيع الكتابة.

فشلت عدة مرات ، بداخلى الكثير من المشاعرأريد أن أحكيها، ولكن بلا جدوى ، أحسها واعيشها بدون المقدرة على التعبير عنها.

بداخلى ثورة، ولكنها ثورة العاجز ، لا أملك الطلاقة والسهولة لتفجيرها.

اعذرنى فقد وصلتنى أربعة خطابات ولكن هذا أول خطاب اكتبه، فقد تصورت أنك لن تكتب ثانية حتى يصلك رد منى، ولكنك دائماً كريم.

فكان الخطاب الرابع الذى أفرحنى وأبكانى كثيراً.

جلست فى حجرتى بعد الواحدة والجميع نيام وبدأت اتشجع لاكتب.

قرأت أولاً جميع الخطابات والكلام الصادق الرائع عن الحب الذى أدهشنى إلى هذه الدرجة! تأملت القصيدة كثيراً، وقرأتها مرات، توقفت «هل يتسنى لى أن أراك نائمة فى أحضانى .. كى يتسنى لى أن أقبل شفتيك كما لم يقبل قط رجل على الأرض شفتى امرأة..»

آه .. وحشنى وجهك الجميل الذى أقبله كل صباح ، شفتيك الغليظتين الممتلئتين، جبينك الناصع.

متى سأراك ثانية؟

لست وحدك المحب فأنا اتصور نفسى وكأنى فى بداية علاقتى بك اتلهف الخطاب وأحسب للمكالمة باليوم والساعة وأعمل لها ألف حساب لسماع صوتك ولكنه حزين دائماً.

خطابك الأخير لمست فيه كمية من العذاب وتأنيب الضمير، لماذا كل هذه الأفكار السوداوية؟ هل أنا أول امرأة تسافر وتترك زوجها، الكل هنا مثلى، بل أكثر منهم من تركت طفلها الرضيع ومن تركت أولادها الأربعة فى سن الثانية والثالثة.

اعتقد أنك كتبت خطابك فى إحدى حالاتك السوداوية التى أعرفها جيداً، أرجوك لاتترك هذه الأفكار تتسلط عليك فأنا هنا مثل كثيرات، بل أنا أهون ، لم أترك إلا طفلى المدلل والذى اعتقدت أنه يمكنه الإعتماد على نفسه، ولا إيه رأيك؟

ليه بتقول إن وجودى هنا ثمن خيبتك؟ أوعى تردد الكلام ده تانى.

دائماً تقول عندى شفافية، وتعرف الأحداث قبل حدوثها واتهكم منك، ولكنى من هنا، وأنا بعيدة عنك، أقر واعترف بها، فقد حدث شىء غريب قبل وصول خطابك الأخير انتابتنى حالة هستيرية من البكاء ، لا أدرى سبباً لها كل مافى الأمر غصة فى حلقى ، لا أستطيع معها إلا البكاء حتى أفرغ مابداخلى وأغسل من همومها، فالوحدة، وخاصة فى الشهور الأخيرة، وعندما تغيب عنى أسبوعاً أو عشرة ، ولا اهدأ إلا برؤيتك وأحضانك بكلتا يدى وارتياحى على صدرك.

ارسل لى عن كل شئ حولك، اكتب عن الكتاب الذى تقرأه حتى أشاركك فيما تفعل، عن الناس حولك عن كل مايدور بخاطرك كما عودتنى، لاتجعل بعدى عنك هو حياتك وموضوع تفكيرك فأنا جزء من هذه الحياة وحياتك عندى غالية.

★ ★ ★

حضرت فى القاهرة (الليالى الفلسطينية)، عروض مسرحية وحفلات موسيقية ، وأمسيات شعرية، كما لحقت بافتتاح معرض الكتاب ، اضافوا عليه هذا العام فكرة طريفة هى (المقهى الثقافى).

عدت إلى البلد فى يوم شتوى رهيب، لاحقنى فيه أمطاره من باب المعرض حتى البوابة الجنوبية لبلدتنا ،وفرحت إذ رأيت البلد جافة، لم يصبها المطر ،ولكنه خيب ظنى، فقد اندفع مدراراً طول الليل والنهار، ٢٤ ساعة مطر، لم تحدث فى حياتى، ولم أر بلدتنا تعرضت لكل هذه الكمية من الماء السماوى.. استحالت الشوارع إلى كتب طينية عظيمة، وانحبست فى شقتنا نجاة تراعينى ، وتسأل عنى حال أن ترى شباك المطبخ مفتوحاً وسهام تلاحقنى بخدماتها الملحاحة، ولكنى اتعامل معها بملل شديد، وربما أكون صريحاً إذا قلت إننى اتعامل معها بنذالة شديدة، فأنا أريدها لخدمة البيت، وحين تنتهى اتمنى لو اختفت فى مكان ما، وإن كان عليها فهى تود لو تقيم معى إلى الأبد.

أنا ملول جداً مع الناس، حين أكون وحدى اتمناهم، وحين يحيطون بى أود لو أفر منهم جميعاً، هذه مشكلة لاحل لها، خاصة مع المحمدين أولاد العم، واحد يستلمنى بالنهار، والآخر يستلم ليلى كله.

كان من المهم أن تقيم سهام يومى المطر إذ اضطرت أن تمسح حجرة المكتبة لأن الماء رشح على الجدار إلى البلاط كما لم يحدث من قبل ، الستارة المطلة على الشارع صمدت، وياللعجب!! أما حجرة النوم فإن الركن مابين السرير والدولاب فقد فسد بياضه تماماً.

انقطعت الرجل عنى ليومين حتى بانت المدقات فى الشوارع، فاندفع الجميع إلىّ، وانتشرت بقع الطين على السلم ، وأنا واقف على الباب كالسبع إدافع عن عرينى ، ولا فائدة.

إن الجميع يخترقنى هنا ، فى ظنهم أننى بائس واحتاج إلى المؤانسة ولا يعلمون أنك مؤنسى الوحيد، إن الحوار مقطوع بينى وبين الجميع طالما أنت غائبة، أنا لا أجيد الحوار إلا معك .. فأنت .. أنت مشكلتى كما قلت زمان ، ففيك تلخص وجودى ، وارجو ألا تملى كلامى هذا، إننى - بالفعل - أقاومك فى كل حين.

* * *

خاصمتك يوماً وليلة ، حين مد لى حسن يده برسالتك شعرت بغيرة حقيقية، وعاملته بطريقة سيئة، كيف تكتبين لغيرى؟ بل كيف تكتبين له وحده، ولم تفكرى فى أن تكتبى لى رسالة بريدية؟ هل لابد من انتظار زميلة أخرى عائدة إلى الوطن لتسليمها رسالتى؟

ولكنى افقت من غيرتى الساذجة تجاه هذا الصبى .. وعاتبت نفسى، وشعرت بحب شديد يندفق فى قلبى نحوه، واكتشفت أنه شغلك بعض الوقت، وأنا أحب من تحبيه، ودفعنى هذا إلى زيارة مغفرة لبيتكم، وكنت أريد أن امسح ذنوبى فاحتضن الجميع، وأصدقك القول حين خطوت خطوتى الأولى داخل البيت اكتشفت الميلودراما الفجة فى شعورى.

اليوم الخميس وأنا بانتظار مكالمة الغد.

اليوم وقفتى والغد عيدى.

محبوبى الرائع

تدرك مدى حبى لك ومدى اشتياقى لك كثيرا جدا إلى حد لا أستطيع وصفه، خطاباتك تعيد فى الروح والإنتعاش من جديد، لا أشبع منها، دائماً أريدها مطولة تملأ كراسات، لا تكفينى صفحة أو أثنين لذلك أعيد قراءتها مرات ومرات ..

أعذرنى فى وصول خطاب حسن، أولا، ولكنك الأول فى التفكير ومحاولات الكتابة الفاشلة عدة مرات خلال عدة أيام، لأنه يصعب الكتابة الفاشلة عدة مرات خلال عدة أيام ، لأنه يصعب على الكتابة يوميا، أكتب جزءا ولا أستطيع المواصلة فاقرأ خطاباتك جميعها وكأنك تتحدث معى ، واكتشفك بعيدا، فأبكى، ولا أكتب .

أما خطاب حسن فكان فى جلسة واحدة .

خاصمتنى يوما وليلة، لو أنى قريبة ما كنت تخاصمنى ولا ثانية لأنى لا أتحمل خصامك دقيقة واحدة .

حبى الغالى ..

وصلنى خطابك بتاريخ ١٢ فبراير ، وهو مرسل من ٢/١ حيث أن الخطابات تصل إلى (ص.ب) ثم ترسل المدام كل أسبوع أو على مزاجها لإحضارها وتوزيعها علينا، لذلك تتأخر الخطابات من عندك ، ووصلنى خطاب آخر من حسن .

تصور فى نفسى اليوم ، وفى الصباح حلمت بك وبالمرحومة أمك وهى جالسة معنا، وجهها مشرق وشباب ليس بها مرض، والفرحة تملأ وجهها

الأبيض زى ما يكون إحنا لسه هنتخطب ، وهى فرحانة بالخطوبة ، وأنت بجانبها حزين أو غير مكترث لوجودى ، وكذلك كانت أختك زينات معانا وهى تشترط أن يكون فى الفرح سندوتشات لحمة مشوية، المهم ما بقى من الحلم فى ذهنى صورة أمك وهى فى عز شبابها ومبسوطة ، اللهم اجعله خيرا .

يمكن كنت مشغولة بميعاد وفاة والدتى لذلك ظهرت لى صورة أمك .

★★★

أخبار صحتك أيه فى البرد ؟ حافظ على نفسك ، أخبار الجيران والبلد معاك، شكوت ثانية من المحمدين فكيف التخلص منهما وكذلك برود وطول جلسات سهام، إنها عادتها ، لو كنت موجودة لأبعدتها عنك بعض الشىء، ولكن تحمل ، ما أخبار قراءاتك التى وعدتنى بها .

أحوالك المزاجية كويسة ؟

حيث أنا عرفاك ، كل ساعة فى حال ، ربنا يروق بالك، ويهدى سرك، وتعمل كل ما تتمناه .

تمنيت كثيرا أن أكون بجانبك ، فى هذا الشتاء القارس بالقاهرة، لكى تدفئنى فى عز البرد ، وأراك بجوارى تؤنس ليلى الطويل، تصور أنى غير متصورة أن أراك ثانية، وكيف السبيل ؟

الشتاء هنا جميل ، ليس بالحار ولا بالبارد، فى اليوم الواحد تحس بجميع فصول السنة ، مرة دافىء وأخرى بارد جدا، وساعة لطيف ، يعنى غير مستقر، ولكن فى كل الأحوال معقول .

طفلى الحبيب ..

أيامى هنا طويلة ومملة، اليوم بيعدى، بصعوبة ، وكل يوم الصبح قبل ما أنزل اقطع ورقة النتيجة وأقول وأدى يوم .

مفيش اجازات ، لا عارضة ولا اعتيادى ولا نزول على مزاجى، كله بالساعة الآلية، تسع ساعات بالتمام والكمال .

تصور كل تفكيرى كيف ستمر هذه السنة لا لأنها ليست واحدة بل سنتين كما فى العقد ، لأنى سمعت أنه من المستحيل السفر بعد سنة ، حيث أن الدكتورة قبلى عملت مشاكل كثيرة جدا، وبكاء يومى حتى استجابوا لها بالسفر بعد سنة ، لأنها لم تتزوج بعد ، وخافت من تهديد العريس بتركها .

المهم أن تفكر فى زيارة لى عندما تتهيأ لك ظروفك، ارسل لى والسكن موجود بداخل المستشفى لعائلات الاطباء .

★★★

أريدك معى يوما من الصباح حتى النوم.

الإستيقاظ بالعافية فى الثامنة ، بعد شرب كوب الشاى ألبس، وانزل العيادة فى التاسعة حتى الثالثة عصرا، ثم الصعود، إلى السكن للغداء والراحة حتى السادسة ، ثم أواصل العمل حتى التاسعة ، ثم محاولة الفرجة على التلفزيون الممل الذى ليس به شىء يرى إلا مسلسلاً مصريا مسليا اسمه (اليقين) الذى عرض فى مصر سابقا، ومسلسلا لإسعاد يونس وسمير غانم ، ليس هنا غير حلقات مصارعة حرة كل يوم ثلاثاء ، ثم سماع النشرة الإخبارية الأخيرة الساعة الثانية عشر، أثناء تجهيز الأكل لثانى يوم وهكذا ....

وبعد الثانية عشر ادخل حجرتى أنام أو أقرأ الأهرام الذى يصلنا بايت..

نزلت يوم جمعة إلى مكتبة البطحاء ، ليس بها إلا كتب نجيب محفوظ وعبد الحليم عبدالله وأنيس منصور والشيخ كشك. رأيت عددا من روايات

الهلال شهر ديسمبر لرضوى عاشور (خديجة وسوسن) فاشتريته ب ٧ ريال، وليس هناك غير الجرايد المحلية، وبعض الكتب الأخرى.

المهم فى الواحدة أحاول النوم لا أستيقظ فى الصباح ومهما نمت لا أشبع من النوم ابدا، يمكن لأن ذهنى دائما مشغول .

أما عن أيام الجمع فكل دكتور يعمل يوم جمعة فى الشهر لأن عليها أجر نأخذه فى ثانى يوم ، حوالى ١١٥ ريال، وأنا دائما اعمل الجمعة الأولى من الشهر، وباقى الجمع فاضية، فأخرج للتسوق، أو مكالمة لك ، أو اطبخ لثانى يوم .

ربنا يوفقنى فى هذا الموضوع والاستمرار حتى اراك..

أما عن المستشفى فهو فى البطحاء ، حى شعبى ، كل سكانه يمنيين شماليين، به أسواق شعبية مثل العتبة والموسكى ، جميعها ملابس حريرية مزركشة ملعلعة ، ومحال للخضار والفاكهة واللحمة وكل العاملين بها يمنيين، ورواد المستشفى منهم ، ليس هناك مريض من أهل البلد إلا نادراً أما الأخوة اليمنيين ، فهم ما زالوا على الفطرة ، تسمع خطوهم من على باب المستشفى ، من الدور الأول، أحذيتهم كبيرة عليهم ، ملابسهم متسخة قذرة، وعليها جاكت رائحتهم غير مستحبة ، القليل منهم نظيف أو يعرف يتكلم ، الجدع منهم من يقول كلمة مصرية بلهجة مصرية ، كلامهم مقلوب صعب الفهم ، ويكرره مرات حتى أدرك معناه .

معظم اسمائهم : حميد ، حمود، قايد ، قاسم، عبده ، صالح .

أمثلة من كلامهم حتى تتعايش معى (بطنى يعورنى: عنده مقص ، الرأس حقى، الركبة حقى، حقوى حقى : أى ظهره، طحت : وقعت) وعندما أكرر سؤالى يرد : كيف ؟

وعندما اسأله : هل تريد عمل تحليل ؟ يرد : ما يخالف . يعنى ليس هنا مانع . وهكذا امثلة كثيرة جداً ..

المريض يدخل المستشفى يدور على كل شيء.. من التحاليل، والاشعة ، والابر، يعنى يصرف مبلغ وقدره، ثم يكتب له العلاج ، وإن لم تفعل هذا تزعل المدام ، ولايعجبها الشغل، يعنى دخل المستشفى قائم على الأخوة اليمنيين.

على فكرة المدام إنسانة مادية جدا جدا ، همها الفلوس والدخل اليومى للمستشفى ، أما الزوج فليس له أدنى شأن إلا أن يجلس على الكرسى طول وعرض ما شاء الله .

المدام لا تمل المستشفى فِى الفترتين ، كلامها أوامر ، ضحكتها مريبة ، لذلك اتحاشى الكلام معها والجلوس إليها، أنا بالعيادة أمارس عملى لأن البعد أفضل ، فهى تشك فى ذمة كل العاملين معها من الأطباء والممرضات .

يقولون لها الدكتورة ، ونقول نحن المدام ، ونقول عنها فى مصر الحاجة ، وهى ليست أى منها ، فهى شيطانة فى ثوب امرأة .

فى خطاب قادم إن شاء الله سأقدم لك كل شخصية من الشخصيات الموجودة معى فى السكن ، من الشغالة من كفر الشيخ ومشاكلها مع الزوج والأولاد والبكاء اليومى، والممرضة من أبو كبير وصراعها الدائم ما بين الأهل من ناحية والزوج والاطفال من ناحية أخرى، والممرضة الأخرى الطائشة والكلام عن الحبيب، والرابعة الفلبينية .

★ ★ ★

هنا شتاء غير عادى بالمرة ، وأنا اعانى من برد مضاعف، برد الطقس وبرد الوحدة ..

كنت أظن انى سأستفيد من وضع المكتب فى الصالة ، ومن الستارة السميكة التى تكدس الوحشة على كلما اسدلتها ، والعبد فى التفكير والرب فى التدبير .. إننى لا أطيق المكوث مع الاشباح فى هذه الصالة الطويلة، افضل أن أغلق على نفسى حجرة النوم ، وألبد فى الفرش، أسرح فيك أكثر الوقت ، وأفكر فيما بين يدى أقله ..

سبق أن ذكرت لك أن المطر هذا العام غير مسبوق ، كان كلامى عن مرة واحدة فقط ، ولكنه لم ينقطع معظم الوقت ، فأنا على موعد معه كلما زرت البلد ، وأقول لنفسى : يارب إنك تلاحقنى بالماء، إن غضبك يسقط علىّ ماء من تحت، ومن فوق ، من مجارى القاهرة ، ومن سماء البلد .

واخترت أهون الماءين ، وبلدتنا المسكينة لا تتحمل كل هذا القدر من الماء، الملائكة فى السماء يسخرون منها ، ويختبرون أقصى قدراتها ، فمرة يفتحون نافذة للشمس الدفيئة لتجفف الشوارع ، وما تكاد تبرز بعض الماشى الممهدة حتى يغرقونها مرة أخرى .

ان هذه العجوز قد زلقت قدمها ، فاندلقت على عجيزتها وقد لوثت أطراف ثوبها البالى، وهى الآن استسلمت لجلستها ، وراحت تنشج شاكية، ولأنه لا مجيب ، حضنت من تحت قدميها ونثرت على (عكشتها) وسال منه على وجهها وتلطخ كل الثوب ، وأنا اتفرج على سخطها المتمرد من نافذتى بحياد ، لأنها خسرت الكثير من حبى ببعدك عنها، ولكن هذه الشمطاء لم يزل يتردد فى قلبها الواهن كثير من العطف على ابنها الجاحد .

فها هى ترسل نجاة كل صباح لتدق على باى : عاوز الجرنان ؟

وتعود الى بكل نصيبها من طين البلد .

ويدق ولدها على الباب : نعم !!

- ولا حاجة .. عاوزك .

ويتسرب من بين يدى ليقتعد كرسى الانتريه ، وأنا ارقبه متنمراً : إياك توسخ الكرسى .

وتدق سهام الباب : فيه هدوم تغسلها ؟

- لا .. خليك لآخر الأسبوع .

- طب أمسح الصالة والسلم .

- انتظرى حتى نرى نهاية للطقس .

وتتخذ لها مكانا هى الأخرى .

ويدق حسن الباب .. عاوز حاجة من برة ؟

- شكرا

- عاوز معسل ؟

- عندى كفاية .

وتدق بنت الأخت زينات الباب : ما ما تقول تعال نتغدى .

- شكرا .. عندى أكل .

وتذهب لتعود بأنيه دافئة : فرغ دول .

- قولى لماما ما تبعتش حاجة إلا لما أقولها .

أختك كريمة تقول : أنا سايباك لأنى شايفة سهام وزينات شايفين مصلحتك ، لما تعوز حاجة تبعت لى .. ما عندكش غسيل ؟

- شكرا ..

- زوجة أخى تقتحم على الشقة بيدها الخيشة والجردل :

عن إذنك أمسح الصالة .

- يا ستى كتر ألف خيرك

- طب السلم بس

وتتسحب قليلا قليلا حتى أراها قد أتت على الشقة جميعها هذا بعض ما يحدث لى فى بلدتنا .

وأقول يا رب كم كانت تحبس عنى كل هذا الحب !!

حبك وحده .. يكفينى ..

نذالتى تسمح لى ، أو أقول - بطريقة مهذبة - بصيرتى تسمح لى برؤية المجاملة فى كل هذه الأمور ، وأنا اتعامل مع كل هؤلاء بذكاء ، أنا امسك الخيط بيدى ، ولا أريد أن افلته ، وأوزع الأدوار عليهم بحيث لا أنتظر اليوم الذى ينفض الجميع من حولي ، وأصير وحيدا تماما .

ولك أن تفسرى هذا السلوك كما تشائين .

نحن على موعد مع سنوية والدتك الأحد ٢/١١

وأنا أكتب اليك فى الواحدة من صباح نفس اليوم ..

سأترك مساحة بيضاء لأكمل أحداث الغد .

★ ★ ★

لا جديد ، بيت العائلة حيث الوجبة الدسمة بين كثرة من العيال تتقافز كالقرود فى كل جهة ، ثم تلاوة جماعية القرآن .

هذه البدعة التى ا بتدعها زوج كريمة كبديل للمقرىء ، لقد أمسك الجزء الخاص به وراح يتلو بآلية يحسد عليها ، وأمسكت أنا جزءا أطالع فيه مرة، واراقب من حولى مرة إلى أن واتتنى الفرصة - طبعا - للخروج، فجلست

هناك بآخر الدار ، ادخن الشيشة ، هذه الفكرة تفتق عنها - ويا للعجب - عقل كريمة ، والغريب أنها كانت تخدم على تحمل بصابيص النار فى طبق الألمنيوم ، وتحول حوم، ومن حين لآخر تسأل : اجيب لك نار ؟

الجديد فى هذه المرة اكتشافى لحجرة محمد، إنها حجرة عبقرية ، ومثيرة للخيال ، أثارت فى الكثير واحيت لى حجرات قديمة دخلتها ، ربما الرائحة العريقة لكرار دور العائلات المنقرضة ، ورف الكتب والمكتب وسلك المصباح، وسلك المذياع والستارة المعلقة كثعبان محنط هى اضافة سوريالية للفنان البوهيمى على عوالم زائلة ، وإذا ازيلت عنها هذه الاشياء تصبح حجرة الخزين او الكرار ، أو حجرة التبن بكل ما تحمل هذه الحجرات من إثارة غامضة للنفس البشرية، وإذا ظل المشهد على ماهو عليه ، فهى حجرة واحد من المناضلين البائسين المنبثين فى أحياء القاهرة القديمة .

★ ★ ★

تعرفت على عزة اليافى فى معرض الكتاب، شاعرة فلسطينية ، معقولة على المستوى الإنسانى ، لها كتاب باسم (أعماق امرأة) لا هو بالقصص ، ولا هو بالشعر، مجرد كتابة ، طبعا لاقت الترحيب من الكثيرين لأسباب خارج الكتابة ، كتب عنها ما هر فوزى مقالا يكاد يكون افتتاحية لمجلة (صباح الخير) وأجرت معها صفحة الفنجرى لقاء صحفيا وأنا كنت محتاج اليها لتوصل اليك شريط الفيديو ، ارجو أن يكون قد حدث ، وأن كانت قد تأخرت فهذا رقم تليفون بيتها (٤٦٤٦٣٨٩) .

قالت إنها ستجعلك فى عيونها، وأن مكتبتها تحت أمرك.

أعلنت لها رأيى فى كتابها بلباقة ، فأنا فى حل من خسران علاقتها،

حاولى أن تحافظى على علاقتك بها، فهى فى النهاية امرأة قادرة على المحاورة غير الأخريات ، وأن كان حوارى معها كشف فقر قراءاتها .

كما حصلت على عنوان الصديق ابراهيم صديق، ورقم تليفونه هو (٤٠٦٧٦٠٦) ، يقيم بالقرب منك هو وأسرته ، حاولى الاتصال به – إن رغبت فى ذلك – فالغربة تحتاج للونس .

***

لم أصدق نفسى حين رأيتك هنا ، رغم توقعى ، صرخت بصوت عال: مش معقول .

وشكرت من اشترى لى المجلة .

شكرا لك يا حبى فقد عشت يوما بالغربة معك.

ذهبت مع زوجة ابراهيم صديق وقضيت يوما معهم . إنه كريم جدا ، وأخ فعلا ، سألنى عنك وأحوالك .

زوجته ايضا طيبة للغاية ، وولدهم الصغير زى السكر .

حدثتنى عزة اليافى تليفونيا بعد وصولها لأنها تأخرت لوفاة والدها بالقاهرة ، معها الشريط، وسوف تحضره فى وقت لاحق .

***

اتعتقدين أن غيابك وفر لى الوقت، وأنك بمجرد أن خطفت رجلك من هنا سأتفرغ أنا لنفسى، وأجلس على المكتب اطالع كتبى ، واكتب ما يزدحم به رأسى؟

إنك مخطئة تماما ، لأنك مبرر وجودى ، ومدد حياتى ، والحياة لا تستحق أن تعاش إلا لأنك معى، وإيمانك بى مسئولية تثقلنى وتحيرنى .

إن رحيلك لم يمنحنى الفراغ بل عبأنى بك .

دعينى اراقب ما أحسه ، ولا يحزننى أن أبثّ طاقة ابداعى فى رسائلك

فحياتى المقلوبة هذه تطالبنى ، لكى اتفرغ لما كنت فيه ، أن أنساك تماما ، وهذا هو المستحيل بعينه ، أنت لدى أعز من موهبتى .

إن اليوم الذى اصحو فيه ، وأشعر أنك تواريت قليلا ، يرعبنى وأظل اعتصر نفسى حتى استعيدك ، فلا تفلتى منى أبدا ، لو أن كتلة من ضباب عبرت واخفت صورتك فى خيالى ، يتملكنى الخوف، وأظل أقاومها حتى تنقشع واستعيدك ناصعة فى بهائك المعهود .

صدقينى حين اؤكد لك أن هدوئى تجاه غيابك يخوفنى ، الحقيقة اننى الآن غير الأمس القريب ، تماسكت ، واغيب عن شقتنا .

واعود ، واستنذل نفسى لأنى دخلت بشجاعة ، وتواءمت مع حالة الغياب، وكأن شيئا لم يحدث ، وابرر لنفسى ان قوة العادة تفعل فعلها ، واقول لنفسى حتى معك أنت وتقول نفسى لنفسى إنك انسان ، محكوم بقانون الإنسانية .

أريد التمرد على هذا القانون واتجاوزه .

واصرخ يا قوة الزمن لن تقدرى على ، أنا عليم بك ، ولذا فأنا استثناء من قاعدتك ، ويتهكم منى الزمن ، ويسلط على أيامه، وأراها تضحك منى ، وتدوس على بدنى ، وفى كل صباح تسألنى :

ها ... ماذا ترى ؟ هل شعورك بها بنفس القوة ؟

واجيب مكابرا .. نعم : وتعود فى صباح أخر، وأفيق لتسألنى :

ها .. ما أخبارك ؟ كيف تراها ؟ واجيب : هى جوهرة قلبي .

وتسخر : ما بالك لم تعد تبكى كسالف أيامك .

واقول : لأن طفلى لحق بها، ورحل برحيلها ، وأنا الآن اطوى ، فى صدرى قلب رجل جهم يكابر الغراق .

***

دعينى احكى لك هذه الحكاية .

قال خليل : عندى بقايا زيت تكفى لدهان المطبخ والحمام .

وقلت لثروت حين زارنى : خالك عنده بقايا زيت تكفى المطبخ والحمام.

وقال ثروت : ارجوك .. انقذنى من الفراغ ، ودعنى ادهنها لك ..

وقلت لحسام حين زرته : ثروت مستعد لدهان المطبخ والحمام ببقايا زيت عمك خليل .

قال حسام : أنا فى عرضك .. انقذنى من الفراغ ، ودعنى اعمل مع ثروت .

وسألت الاثنين معا : وكم تتكلف هذه الشغلانة ؟

وأجابا : لا أكثر من ثلاثين او اربعين جنيها .

وسألتهما : وكم تستغرق من الوقت ؟

واجابا : لا أكثر من يومين او ثلاثة .

وحدث أنى اقتنعت ، وجاءوا بادواتهما ذات صباح ،

وخاب ظنى فى كل شىء ، العمل استغرق اسبوعا، والتكلفة زادت عن المائة جنيها ، اما التلوث الذى ظننا انه سيكون محصورا فى المكانين فقد امتد إلى كل شىء حتى وصل الى رأسى ، عشت اسبوعا يركبنى الهم ولا يريد النزول ابدا .

فى اليوم الأخير من الدهان صعدت سهام ونجاة وهاتك يا مسيح ، وهاتك يا تقليب فى العفش حتى لمعت الشقة مرة أخرى بل ازدادت بريقا، واقول لنفسى إنك لو رأيت المطبخ والحمام بعد الدهان لندمت علي السفر ، وقعدت بينهما مشدوهة بالزيت . كما افعل انا الآن ، ودائما فرحتى لا تكتمل، لأنى ارى الأشياء بعينيك .

● عود إلى أول الرسالة :

أحاول هذه الأيام مع نص مراوغ ، قطعت مرحلة لا بأس بها . بدأته بجملة كانت تلح بشدة على عقلى : عجباك .. خدها ولم أخطط لشىء آخر، كل ما فى الأمر ، أن ابدأ النص هكذا ، بهذه الجملة .

وستدهشين أن الكلمة هنا ، ولم توجه لبشرما ، إنما قيلت لقط اسود اقتحم شقة الزوجية ساعة الغداء ، عقب عودة الرجل من الصلاة مباشرة، وستدهشين أكثر حين تعرفين استجابة القط ، فقد اختفى هو والزوجة التى اسميتها سميرة .

ومن هذه الورطة ، تبدأ الحكاية ، فهل سيكون النص مجرد محاولة للبحث عن الزوجة ، المختفية .

لا أدرى ، فقد قطعت شوطا بالفعل فى هذه المحاولة .

الغريب فى الأمر أننى أثناء الكتابة ابتعث الغريم الميت ، واسميته صلاح، وهناك شك فى انه تماهى فى جسد قط .

إنه نص مجنون وغريب .

سأتتبعه حتى أرى ما يريده منى .

* * *

اتصدقنى حين أخبرك أن يوم مكالمتك كنت أبكى من الصباح، ولا أدرى

لماذا ، ولكنها حالة من حالات ضيق الصدر التى تنتابنى ولا تهدأ إلا بالبكاء.

قدمت للمدام هدية عيد الأم عبارة عن خاتم ، ولكنها رأت بكائى، فسألت : هل تفكرى فيه ؟

هذا فى الثانية عشر ظهرا ...

فى السابعة مساء انتفض قلبى لسماع صوتك، وهدأت روحى لمحادثتك ، ولكنى حزنت لأنى لم اكن بجاورك فى تعبك .

يا ترى عملت ايه ؟ وأخبار صحتك الآن، وأخبار مزاجك ، إن شاء الله تكون كويس .

يوم مكالمتك الأخيرة (الجمعة) لم أحس بارتياح ، وقرب نهاية المكالمة ضاعت منى الكلمات ، وانهيت المكالمة بصوت ضعيف حيث دمعت عيناى وكدت لا أتمالك نفسى .

صوتك يفرحنى ويبكينى لبعده عنى وقلة كلماته .

أما عن حالى هنا فهى كالعادة ، كثير من الملل والتكرار ، ما نفعله اليوم هو نفسه فى الغد، لا جديد ، إلا الخروج يوم الجمعة للتسوق .

حاول تستمتع بوقتك ، ولا تجعل الوحدة تسيطر عليك ، يكفينى هنا الغربة ، وربنا يجمعنا عن قريب .

كتابة مدهشة :

ها أنت يا حبيبى تثير دهشتي بنصوصك الأخيرة بعد مطالعتى للطلل الذى استعدت به امكنة الوجدان .

هذا العائد ذات ليلة من الحى الذى نشأ فيه طفلا ليعود الى بيت الزوجية، فتبعث امامه شخصيات المكان الأول .

ليعيقوا وصوله إلى الزوجة .

وفى النص الأخير ، اختفاء أخر ، بل عملية خطف من كائنات سفلية، ورحلة مجهدة لا ستعادتها .

ما الحكاية بالضبط ؟

لا استطيع ان اجزم برأى فيما كتبت حتى اطالعه ، ولكن الفكرة تعجبنى كثيرا، ابحث عنها حتى تجدها .

وسترى انها لم تفارقك أبدا .

أمنياتى لك بمزيد من الإبدا ع الجميل .

* * *

ظل على الجدار ، وصورة فى المرآة ، وأنا على الفراش بين الظل والصورة شاهد على الحالين ، وفرح بلعبة المؤانسة التى ابتدعتها لنفسى.

شىء رائع ان تؤانسنى نفسى وظل صورتى .

وكنت اكتفى بك حين كنت بين يدى .

* * *

اعتدل الطقس بعض الشىء ويبدو أنى سأهجر حجرتنا الشتوية الى حجرة الصيف ذى النهارات الطويلة، ويا ويلى من طولها ، وبالفعل قمت باعادة المكتب الى مكانه الأول، وأقمت السفرة إلى جوار (النيش) الذي كان ينظر الى المكتب باشمئزاز وقرف وبدا لى أن الاشياء ارتاحت الى استعادة مواضعها .

واجتمع شمل العوائل ، عقبى لى .

ولأننى ساودع هذه الحجرة التى كفلت لى دفئا من جانب واحد طيلة شهور البرد ، قمت برحلة، كانت فى بالى منذ فترة بعيدة، وكانت رحلاتى

السابقة سريعة ومحدودة لا تتجاوز درجا من الادراج ، او ضلفة من ضلف التسريحة او الكومدينو، وكان الهدف ، فى كل مرة - استعادتك ، وبث الروح فى الاشياء الخامدة .

واليك اكتشافاتى المهولة ..

فى ضلفة الدولاب العلوية من جهة شباك المنور عثرت علي غطائين جديدين ، وفى الضلفة الوسطانية وجدت وسادتين لم نقربهما ، ونفرت منها جميعا لأنها لا تحمل ذكرى من ذكرياتنا ، ولا شيء مشترك بيننا وبينها ، قعدت خائب الرجاء، ولم أكمل رحلتي العلوية .

واقدمت على الضلفتين الكبيرتين جهة شباك الشارع .

الروب الكحلى على الطراز اليابانى والروب الاخضر يلتفان على جواكّت وفساتين وقلت : إنها ثروة عظيمة لإثارة كوامنى .

كل ملبس من هؤلاء ملأته عين خيالى بصورتك .

وقعدت علي حافة الفراش اتأملك ، لكل ثوب شخصية مستقلة ، بالعذابى الطويل ، إننى اتألم ، وازيد تأملى ليزيد ألمى كل شيء حاضر هنا ، تنقصه الروح لينتفض ، وروح هذه الاشياء ، هو أنت .

اننى حين اسحب شيئا للاستعمال ليمتلكنى الجزع كأننى اخللت بنظام أنت اقمته ذات يوم ، وعليه ان يستمر على وضعه ، لا أريد ان أهدم شيئا نسقته يداك .

ربما قلت لك إن أحدهم حين كسر فنجان (روميو وجولييت) كدت امسك بخناقه ، لولا احساس المسكين بالذنب الشديد لدرجة انه لم يجرؤ على الخروج من المطبخ حتى طيبت خاطره، وقلت فى نفسى : هذا اول شيء

يكسر لنا ، وربما يكون مفتتح الحطام ، سأؤرخ له واسميه (يوم الفنجان) او (واقعة الفنجان) .

وهناك واقعة أخرى ، تحطم كوب شاى من يد ثروت اثناء قيامه بالدهان ، قلت : لقد وقعت الواقعة وها هو الحطام يتوالى ، وكنت اظن أن اكوابنا ضد الكسر ، فماذا حدث لها ؟ اذن ستعود يوما لتجد مطبخنا فارغا من فناجين (روميو وجولييت) ، والأكواب بنوعيها ، السادة التى أحب استعمالها ، وتلك المضببة التي كنت اصب لك الشاى فيها، للتمايز .

ألم يزل شايك (سكر خفيف) .

إن بعض المندسين هنا يحاولون افساد نظامنا ويصنعون لى الشاى مغلياً ، بديلا عن شاينا (الكشرى)،يبدو - وهذا اكتشاف أخر - أننا أفلحنا فى صنع عالم مغلق لا يخص أحدا سوانا ، فأنا اندهش لاندهاش الناس لممارستى سلوكا كنا اعتدناه معا، وانهم فى النهاية اما يتصعبون علينا، ويقول أحدهم للآخر ، مثلا - (خلى بالك شاى عمك كشرى لأنهم متعودين على كدا) والجمع هنا يقصد انا وانت ، فسلوكى الآن محسوب عليك أيضا - ألا يرضيك هذا ؟

فتأكيدا لاكتشافى الخطير اقول : ان الناس هنا يتعاملون معنا ، انت وأنا - كروحين فى روح ، إن صح التعبير .

ما طولش عليك قولى طول ..

نعود إلى الدولاب ..

إنك حملت كاهلى بمسئوليات لا طاقة لى بها ، فمازلنا فى الضلفة الاولى جهة شباك الشارع ، إن بها عددا من المفارش والملاءات والوسائد والمساند

بألوان مختلفة، لا قدرة لى على حفظها ، فارجو ان تكتبى لى ثبتا بعددها حتى لا يخمنى احد فى تقديرها ، قد تأتى زينات ، او سهام وتعلن (السراير عاوزة تغيير) واجيب متململا: عندكم فى الضلفة الأخيرة.

ويسحب منها ما يلائم طقما بكامله .

وبعد ذهابهما اشعر بوخز الضمير ، واعد نفسى بأنى سأحصى هذه الاشياء يوما ما، ذلك أنى اكتشفت أن واحدة منهما قد لبست ، احد المساند بلون مخالف لرفقائه . صحيح كل الطقم رمادى، مش رمادى برضك ؟ ولا رصاصى ؟

المهم ان واحدا منهما له دانتيلا والآخر بدون ، وكان على ان اضبط الموضوع ، إما أن يكون الجميع بدانتيلا أو يكون بغيرها ، وأخذت قرارى، لأنى ادركت خطورة المشكلة .

لو صهينت قليلا سيخلد هذا الاختلاف الى الأبد ، وحدث فعلا، وتنفست أنا والوسائد الصعداء معا، لقد ارتاح الجميع، وكنت متأكدا أن رأسى لن يرتاح ابدا طالما يشعر أنه ينام على واحد بدانتيلا ، والآخر بدون .

بجوار هذه المفارش والوسائد تقبع حقيبة العراق كادت يوما أن تكون الى جوارك ، وتهنأ بقربك ، ولكن ماذا نقول للقدر، إن الحقيبة الصفراوية ذات الوجه الكريه هى المحظوظة ، وقالت لى حقيبة العراق : قل للست ستندم على تركى هنا، أولا أنا صغيرة ومحندقة وحركة ولدى خبرة بسفر الطائرات ، وأن تلك الصفراوية المفرشحة ، سحنتها تقطع الخميرة من الدار طول وعرض ع الفاضى .

وطيبت خاطرها قائلا : حينما فكرت فى صحبة الطريق كنت أول من خطر على بالها ، ولكنها عملت حسابا للناس، وأنت تعلمى كم هى كريمة.

ورأيت فى أقصى الركن عددا من الأحزمة القديمة، عجائز بسحن مكرمشة ، انزوين بعيدا حين رأونى ، وانكمشن فى ظلام الركن، وهن ينظرن إلى بسوء نية .

وكدت أسمع صراخ أحدهم :

أغلق الباب الله يجازيك .. ودعنا نقضى أيامنا الأخيرة بسلام .

هذا ماقالته الأحزمة ، وأحترمت رغبتها ، وضممت الضلفتين ، وقلت لنفسى إننى سأؤكد على من يستعمل المفارش والملاءات أن يشفق على الأحزمة ، ولايمد لهن يداً .

فى الضلفة الوسطانية لا جديد غير تلك الصرة الملفوفة فى جلبابك الصيفى الخفيف ، حرك فى نفسى ساعات لطيفة ، ونسم علىَّ ريح عصارى أستوحشها لما أتيقن أنى سأعيشها وحدى ، وفجعت بعد فتح الصرة ، لأنى اكتشفت أنها أشياء تخصنى .

إنها بيجاماتى الصيفية ، وأدهشنى أنى عثرت على بيجامتين ، أظن أنى لم استعملهما بعد ، أرجو أن تذكرينى ، أخشى أنى سأهمل واحدة منهما لأنى وجدتها منزوعة الأستك .

فى الدرجين الكبيرين أشياء ثمينة ، الأعلى منهما ، الرقابة تمنعنى من الحديث عن محتوياته .

أما الأسفل فإنه غنى .

حقائب قديمة متراصة ، عليها عرق أصابعك ، وتاريخ علاقة حميمة ، كل واحدة منها حفظت أسرارك يوماً ، وياليتها تبوح لى عن تاريخ الصحبة الطويلة .

وصور عرسنا ، وصور الحياة قبل عرسنا ، إننى أعود إليها من حين لآخر ، وإننى الآن أتذوق صورك كما أتذوق لوحات الفن التشكيلى ، أو أى نص أدبى جميل ، فواحدة تقربك منى جداً ، وواحدة تنأى بك عنى ، وقد أقمت معرضاً لصورك التى تقرب لى شخصك كما اعرفه ، تحت زجاج كل شيء .

إن لك صورة تلقائية لأنها بيتية مائة فى المائة ، شعرك المبلول غير المسرح ، وأنت فى المطبخ تعدين كيكة عيد ميلادى وتنظرين إلى الكاميرا باستنكار لأنك غير مهندمة ، كنت تجهلين أن مثل هذا النوع هو الذى يقربك إلىَّ كثيراً لأنى أغلب الوقت أراك فى البيت لافى العمل .

أراك فى البيت لافى العمل .. يا للسخرية ، لم يعد لى غير هذه الصورة التى تجسد لى حالك فى البيت .

وعلى رأس المعرض صورة (سى السيد) الخالدة ، أقصد تلك الصورة التى تجلسين فيها على كرسى السفرة ، وأنا واقف كالسبع .

تذكرنى بتماثيل أجدادنا الفراعنة ، ونسب الأحجام بين الرجل وأنثاه .

إنها صورة واقعية وأصيلة ، وتمتد إلى جذورنا التاريخية ، إنها تحسم قضية عمرها من عمر الحملة الفرنسية ، قضية الأصالة والمعاصرة التى عجز عن حسمها مفكرو الحقب الحديثة .

أما الضلفة الأخيرة ، فأنا معتاد عليها ، وهى الجزء الأليف لدى فى هذا الهيكل العظيم، ولمحت عينى صرة هناك فى جلباب قديم ، ووجدت أن أغلبها قطع من القماش وفساتين صيفية أحفظها عن ظهر قلب .

★ ★ ★

لا أدرى ما الذى آلمنى بعد المكالمة الأخيرة ، كل مافى الأمر أنها لم تحقق بهجتى المعهودة ، هل لأننا أعتدناها ؟

أم لأن صوتك المحايد أقلقنى ؟

أم لأنى صرت أتحدث إليك – رغم غرابة الموضوع برمته – برباطة جأش منقطعة النظير ؟

أسئلة كثيرة راودتنى .

ولم يفلح عادل فى كسر الحاجز الذى سقط بينى وبينه ، وشعرت بالإختناق فى شقته ، وأردت الخروج على عجل .

هل لأعود إلى شقتنا ؟

إن هذا يراكم الكآبة على صدرى أضعافاً مضاعفة .

كنت بعيدة عنى جداً هذه المرة ، تكتفين بالضحك ، ولم تكونى حانية ودود كما أريد ، وأنا استنكر نفسى ، وأرفضها لأنى كنت متماسكا بما فيه الكفاية .

هل الشعور بالتكرار قادر على تكلس المشاعر بكل هذه الجدارة ؟

بعدها سرت فى شوارع البلد هائماً على وجهى ، لا أدرى أى الأماكن ترحب بى ، ولا أى إنسان قادر على استعادتى إلى ماكنت عليه إذ أن وضعنا بائس للغاية ، أنا لم أعد محتملاً لما يحدث .

أريدك كلك مرة واحدة ، والآن قبل الغد .

إن المدة طالت بمالا تستطيعه قدرتى الواهنة .

ووجدتنى لا أستطيع شيئاً غير أن أحادثك بما تضيق به المكالمة ، لقد صار ما بينى وبينك يحصى بالمال .

كنت أول الأسبوع مبتهجاً ومستعيداً لتوازنى المفقود .

بعد عثورى على صوت أريده ، وحاولت به كما ذكرت لك ، فخرجت بسطور ، مازلت أتأملها ، واستغربها ، مرة تصيبنى بالغثيان ، ومرة تفتح لى عوالم غير مدركة ، ولكنى سأحاول الإستمرار ، لأنى لا أملك البديل .

كنت – فى أيامنا الماضية – أجرب فيك سطورى المجهولة ، وكانت نظرة عينك الراضية تكفينى .

أنت مازلت لاتعين حاجتى إليك ، وتجهلين مقدارك لدى ، إننى فى أحيان كثيرة أحاول التمرد عليك لأكون نفسى التى سلبتها ، أنا الآن حين أتأملك لا أجد لك وصفاً لائقاً ، وانتهى إلى أنك كائن خلق لى خصيصاً ، ليس مجسداً كالكائنات الأخرى بل هو دم يسرى فى عروقى ، ويأخذ بناصية روحى ، لأنك من مادة الروح خلقت .

وأرجوك ألا تسخرى من جنونى مرة أخرى ، فلقد هزنى – وهذا ما اكتشفته الآن – أنك تسخرين من جنونى ، فدعينى أمارس جنونى بحرية .

★ ★ ★

تذكرت بعد المكالمة أن ٣٠ مارس ربما تظلله أيام رمضان ، وهنا أسألك .

هل سيختلف الأمر ويضطرب موعدنا ؟

أنا فى كل الأحوال سأقيم عند عادل منذ عصر هذا اليوم المرتقب ، إذا كان من المناسب لك أن تتصلى قبل المغرب ، فهذا لك ، أما إذا كان الأوفق أن تتصلى بعد المغرب .

فهذا لك أيضا ، أما إذا كان اليوم على بعضه غير مناسب بالمرة ، أرجو

أن تتصلى قبله بمدة مناسبة لتحديد موعد جديد ، مع مراعاة فروق التوقيت .

★ ★ ★

كل سنة وأنت طيب وإن شاء الله رمضان القادم نكون سوياً فى مصر .

إن لم أحادثك يوم ٤/١٣ حاول أنت أن تتصل فى أى يوم وأى وقت ، فأنا موجودة بالعيادة منذ التاسعة بعد الفطار حتى الثانية صباحاً ، ما عدا الجمعة ، لأن الظروف هنا غير مضمونة والمدام ستكون فى مصر قبل ١٥ رمضان ، ولا أدرى هل سيسمح زوجها بالخروج للحريم أم لا ؟

حيث حدثت واقعة لنا ونحن فى السوق من المطوع ، حيث طلب تغطية وجوهنا ولكننا لم نسمع كلامه فتابعنا وطلب تغطية الوجه ، وفى الآخر أخذ الإقامات من الممرضات ، ورفضت أنا ، وأخذ الإقامة وذهب للشرطة وكتبت البنات تعهداً بأحترام تقاليد البلاد ، لذلك هناك تشديد من المستشفى فى الخروج ، خاصة فى رمضان ، فلا تنزعج إذا لم اتصل ، ولكن سأحاول .

أرسل خطاباتك (عادة) بدون تسجيل فكل الخطابات تصلنى كنت هايل فى المكالمة الأخيرة ، وأنا أيضا كنت فرحة بصوتك وأخبارك السارة .

تمنيت فى التليفون أن تكون معى يومها وكل يوم ، فأنا مشتاقة لك جداً .

يبدو أننا يجب أن نتحمل عاماً كاملاً حتى نستطيع الالتقاء ثانية .

صعب جداً أن تأتى أو أنزل أنا إجازة إلا بعد سنة حسب العقد حتى أكون قوية فى المطالبة بذلك .

ستكون المدام فى مصر قبل ١٥ رمضان ، إذا أردت أن تتحدث إليها للأطمئنان فلك حرية الأختيار ، وإن لم يكن لك رغبة فى رؤيتها فأنت أيضا حر ، ولا تشغل بالك كثراً ، فأنا هنا لاينقصنى إلا حريتي ووجودك معى ووجودى بين أهلى وإخوتى ، والعمل ليس به أية صعوبة فيما عدا كبت حرية الخروج .

●

ملحوظة :

بأكتب لك الساعة السادسة صباحاً ، وبقولك صباح الورد والفل ، وكل سنة وأنت طيب .

عندما أخبرتنى الحاجة / المدام بالذهاب إلى مصر ، تمنيت أن أكون معها ولو مدة أسبوع ، ولكنه مستحيل .

عندما ودعتها فرت الدمعة من عينى ، لا أدرى لماذا .

ليس حباً فيها ولكن حسداً لها ، لأنها ستراك وتتحدث إليك ، وأنا لأ .

وصلنى خطابك الأخير بتاريخ ١٤ رمضان .

والنبى علشان خاطرى حاول تبعت معها شريط كاسيت بصوتك ، أرجوك .. تصور إنه مهم رغم إننا كنا نهزأ بمن يرسل شريطاً ، ولكنى الآن أدركت أهميته .

والنبى علشان خاطرى تواصل ما بدأت ، عاوزة اقرأ العمل الجديد كاملاً عند نزولى أو حين يتاح لك المجىء إلى هنا .

لا تفلت فرصة غيابى .

★★★

إنها الخامسة والربع بتوقيت مصر والسادسة والربع بتوقيتك ، أخيراً سمح لى رمضان بمعرفة ماتفعلين فى هذه اللحظة بالضبط ، إنك تتناولين إفطارك بينما أنا قابع فى هذه الحجرة المظلمة إنكفىء على نور الأباچورة لأخط لك سطورى بانتظار نداء خليل الذى يصر على تناول إفطار رمضان مع أسرته ، ولم تنفع معه المجادلة ، إنه لا جدوى من النقاش «دعنى لشئونى الخاصة ومارس أنت حياتك كما تريد» .

«ولكن كيف ؟» .

إنهم يشفقون علىَّ من وحدتى ، وأنا لا أشفق على نفسى .

غلقت الأبواب والنوافذ لأعيش فى عالمى الخاص .

فى مرات ينتابنى الإحساس بأننى وحيد فى كل شىء .

إن الدنيا كلها تسير باتجاه ، وأنا أسير فى المخالف ، ويركبنى العناد .

إن الغالبية لاتعنى الصح فى كل الأحوال .

وأنا لا أريد التنازل عن قناعات ترسبت فى نفسى .

بل إن وحدتى تشعرنى ببلاهة الآخرين الذين يقيمون للطعام مهرجاناً يسعدون به ، والعبد لله لايهتم بما يهتمون .

وبرغم كل شىء فإن طقوس رمضان ضاعفت وحشتى .

يوم كنت معى كنا نخلق هذا العالم المتفرد دون الإحتفال بأحد حولنا ، والآن أنت مجبرة على المسايرة ، وأنا مجبر على وحدتى .

وفى النهاية لا أحظى من رمضان إلا بسهره وونسه الليلى ، ولكنه فى كل الأحوال مهلك للوقت ، دون رادع ، وأرجو أن تتذكرى - مثل هذه الأيام - فى زمن الدراسة ، كل عمل النهار يؤجل بسبب الصيام ، وكل

عمل الليل يؤجل بسبب الإكتظاظ ، وتدور أيامه لتسرق منا وقتنا ، ولا مفر .

كنت أعتقد – كما أعتقدت ألف مرة – أنى سأنغمس فيما كنت شغلت به نفسى فى وقت سابق ، ولكن هيهات .

فرمضان أقوى من الجميع ولا تنفع معه حيلة ما ، قانونه غالب وقوى ، لايمكن أن أحرم نفسى من برامجه التليفزيونية ولا مسلسلاته العديدة وسهراته المستحدثة ، ولا من لياليه فى حى الحسين العريق ، إننى أخطط لرحلة قاهرية لأقضى بعض الأمسيات هناك .

وأنا فى سباق مع الزمن ، أريد أن إنهى ما بدأت بأى ثمن .

ولكن دعينى اسألك عن رمضان عندك ، هل له نفس نكهة رمضاننا أم أنه مغاير ؟

أعرف أن الحياة عندك قاحلة ، وأن أيامه تجعل شوقك للصحبة ولمة الأقارب ضعفاً .

فأصبرى وصابرى ، كما أفعل لى ولك .

★ ★ ★

على غير العادة انقلب الطقس فجأة ..

كنا خدعنا بالأيام القليلة الماضية ، وكدنا نبدل ملابس الشتاء بملابس الصيف ، ذلك أن الشمس أزدهرت قليلاً ، وسخن الجو إلى حد ما حتى إننى جربت النوم فى الحجرة الصيفية لليلتين أو ثلاث .

وبينما أنا جالس مع بعض الأصدقاء على المقهى إذا برشاش خفيف ينهال من السماء ، وقلنا :

إنها سحابة عابرة .

وتزوبع الجو ، وثارت عواصف من تراب وورق فلم نطق الجلوس على الرصيف ، وقررنا العودة إلى منازلنا ، وأصر أحدهم على دعوتى إلى بيته ، وأغرانى بدخانه ، فذهبت معه والرشاش يلاحقنا ، تحلقنا مع آخرين فى الحجرة بالدور الأرضى ، وكان بمواجهتنا تلفزيون أبيض وأسود يشكل الصور على مزاجه كما يفعل تليفزيون القاهرى المسكين ، وتفرجنا على (رأفت الهجان) ، وبرنامج (حكاوى القهاوى) ، وجزء من مسلسل دينى ، وقمت قبل أن يبدأ (نادى السينما) لألحق به فى شقتنا حيث أتمدد على الكنبة ، بإنتظار زيارة خليل المعتادة فى الطريق وجدت البلد تتمرغ فى الوحل للمرة العاشرة هذا العام ، ولم أشفق عليها هذه المرة ، وقلت :

تستاهل .. أكيد عملت ما أغضب الرب ففتح أبواب السماء بلا رحمة .

واستمر المطر طوال الليل ، وتجدد بقوة دافقة حتى عصر اليوم التالى ، وتكررر مايحدث لى عادة فى الأيام الممطرة ، وقلت :

جاك ماتتمناه من عند الله .

الآن أنت محاصر بالطين ، وستخف الزيارات اللحوح .

ولا فائدة ، ظلوا يترددون ، ليلوثوا درجات السلم بالطين ، وليفسدوا النظافة التى أقامتها زينات وسهام فى يوم سابق .

على العموم ستتقلص أيامى هنا ، وقد أزفت أيام الرحيل عن البلد ، ولا أدرى كيف سأستقبل العمل الذى سأجبر على التردد عليه بشكل روتينى ، ولا أملك غير الدعاء بالهداية لشقة القاهرة ، فلا تفعلها معى وتجبرنى على السفر اليومى .

قلبى معك يامليكة القلب ..

تشجعى وقاومى أيام الوحدة ، كما أفعل أنا ببطولة منقطعة النظير .

● كيف تكون النهاية ؟

أريد إنجاز النص قبل مغادرة البلد ، والعودة إلى العمل . هناك أكثر من تصور للنهاية ، برغم اعتقادى بأنه لا نهاية لأى نص أدبى ، فهو دائماً مفتوح على الإحتمالات .

قلت :

أبوح لك بما أسره .

وقلت :

النص يريدنى أكثر ، فهو لايكف عن المراوغة .

يريد الإستكمال عبر رحلة عودة ، تطلب المزيد من معارج الروح .

قلت :

إذن كن معه ، ولتدع له حرية التصرف ، وليأخذك حيث يشاء .

وقلت :

أكتب رحلة أخرى تكون الزوجة هى الباحثة عن الزوج الغائب ، وهذه المرة يكون غيابه بلا عودة .

وقلت أخيراً :

فلا جعله مستجيباً لعناصر الطبيعة الأربعة (الماء ، الهواء ، النار ، التراب) على أن يكون لكل عنصر فصلاً مستقلاً .

هذه هى مقترحات العقل الواعى .

ولا أدرى المصير بعد .

- ١١ -

كيف أهنئك على عيد أنت فيه بعيدة عنى !!

عيدنا يوم لقائنا، لا علاقة لى بعيد الناس، إن ما يبهجهم ليس بالضرورة فرض علىّ، احتاج إلى قدر كبير من البلاهة لأسعد بسعادتهم، وماذا فعلت لاستحق عيداً؟ هم فعلوا ما يستحقون عليه مثوبتهم، بعيدٍ على قدر عقولهم، صاموا وصلوا، وأكلوا ما طاب لهم من لحوم حمراء وبيضاء ومحاشى وثريد بأنواعه، وحلوا بالعصائر والقطايف والكنافة وما شابه.

وأنا لم أكن معهم فى لعبتهم، فلا أستحق مثوبتهم.

مرت كل أيام بهجتهم وأنا حالة وحدى، ولم أستفد غير تعطيل عقلى، كان فى أجازة لمدة شهر كامل، ولم تنقض أيام رمضان قبل الغضبة السنوية لزوجة خليل، ولم نعرف لهذه الغضبة أسباباً بينة، كل ما فى الأمر أنها كانت معزومة عند أختها، وعادت لتجد قفلاً على الباب، وأدركت المعنى وحدها. وقضيت أياماً لا أحادث خليل، وهو - بالتالي - أنقطع عن زيارته الليلة، وجعلت طعامى لدى زينات، ثم دعوته مرة لمحادثته فى الأمر، وأبى بشدة إسترداد الأولاد قبل دخول العيد.

وظلوا فى ضيافة خالتهم، حتى عدت ذات ليلة لأجد شقتهم مضيئة، وأصوات الأولاد تلعلع فى المكان، وأبتهجت قبل أوان العيد، وانتهى الموضوع عند هذا الحد، وكأن شيئاً لم يقع، وحمدت الله أنه حدث هكذا مخففاً دون العلقة إياها، فلا أتورط وحدى، وكما تعلمين أن مثل هذا الحدث يعكن علىَّ حياتى حتى فكرت أن أجمع هدومى فى حقيبة وأغادر إلى القاهرة، ولو وصل الأمر لقضاء أيام العيد هناك.

★ ★ ★

أكتب إليك من شرفتنا، أنا الآن فى جلسة لا أحسد عليها، أتمنى لو تواريت عن الناس، لا أحب أن أظهر بوحدتى علنية، وكأنما أرتكب جرماً، وقد هلت علينا أيام الصيف الحارة، والشقة الآن لا تطاق، وأنا مجبر على الجلوس فى الشرفة اتنسم هواء العصارى، لا جديد فى المشهد، نفس الشمس الصفراء على جدار بيت الناظر، دكان الدجاج مغلق لأنه فى أجازة العيد، وسطح الطاحونة تتوزع عليه أشياء قديمة صدئة، العيال فى الشارع اتسخت عليهم ملابس العيد، ومنهم من عاد إلى ملبسه القديم، وبيتكم لم يزل مفتوح النافذة ، هى لى وضعها منذ الصباح على استعداد لاستقبال الضيف الذى لا يأتى، ومنشور على سطحها غسيل أعتقد أنه (رد العيد) .

وحجرة الميزان الملحقة بالطاحونة تهاوت جدرانها، وسرق الجيران بعضاً من حجارتها مما أدى إلى وقوع شجار بين شركاء الطاحونة والسارقين.

ومازالت العقود تضوى بنورُ الشمس الغاربة على صدور الأمهات اللاتى عقدن لفف الأولاد فى حقيبة.

ها أنت ترين أن أشياء الخارج لم تزل على استقرارها بينما الدنيا غير الدنيا، على الأقل دنيانا نحن مما جعلنى أظن أن التغيير فى بلدنا داخلى، يحدث فى نفوس البشر، ولا تقع خارجها .

لاحظت قلقى وأضطرابى فى المكالمة الأخيرة، وقيل لى كن حريصاً على من تتحدث إليهم فى الغربة، لأن حساسيتهم تكون مرهفة تجاه كل شئ، وندمت على إنفعالاتى، وبحثت عن دافعى لذلك، واتهمت صديقى القاهرى فيما حدث، فقد أختلى بى فى زيارتي الأخيرة للقاهرة وسألنى:

سمعت أن زوجتك مسافرة.

– هذا صحيح .

– خذها نصيحة منى.

– كيف ؟

– ستتغير أحوالكما بعد ذلك.

– ماذا سيحدث؟

– اتعظ من تجربتى ما أن يسافر أحد الزوجين لمثل هذه البلاد حتى تتبدل حياتهما .

ورحت أتابع ما يقول

– ذهبت كما تعلم إلى واحدة من هذه البلاد وأمضينا سنوات هناك، وكنا نظن أننا سنقضى بما سنحصل عليه من مال على كل مشاكلنا إذا الحال بعد العودة غير الحال حتى إننى أتمنى ساعة من ساعات فقرنا القديم. قد لا تعرف أنها حرمت علىَّ جسدها منذ عودتنا وها أنت ترانى أعيش فى القاهرة وحيداً .

وقع الرعب فى قلبى، وحدثت نفسى «معقول !! أيحدث هذا معها؟!! وعدت أسأله لأجد ثغرة ولاؤكد لنفسى أن حالهما غير حالنا .

– هل تزوجتما عن حب ؟

– كل ما يمكن أن تتصوره من أمور كان بيننا ، ربيتها على يدى هاتين، ولا شاغل لها الآن غير كتابات حسن البنا وأمثاله.

وتمنيت لحظتها أن تعودى فى الحال، وقلت: سأؤكد لها ذلك فى مكالمتى القادمة، إننا لسنا بحاجة إلى ما يفرق بيننا .

فارجو ألا يكون حديثى قد ترك فى نفسك أثراً سيئاً .

* * *

وحشنى وحشنى خالص

أخبارك إيه بعد أستقرارك بالقاهرة، أتمنى من الله أن تكون أحسن من الأول، أخبار الشقة إيه؟

خد بالك من نفسك وصحتك، عاوزه أرجع أشوفك زى ما أنت لأننى أيضاً لم اتغير، فقط شعرى زاد طوله شوية. بالنسبة لموضوع سفرك أو أنزل أجازة لم أبت فيه لأنى لم أكلم المدام. وأنا تاركة الأمر للظروف، لأنها كل يوم بحال، والواحد هنا ليس له رأى لكن تسيره الظروف.

أنا هنا اعايش موضع الخلفة يوميا مع المدام حتى أن زوجها مصر على أن ينجب ولداً، وأن آخر طفلة معها عمرها ٧ سوات وإلا سيتزوج عليها لذلك هى كل يوم عند دكتور شكل وطلب منها بعض الأطباء إجراء منظار للرحم وهى خائفة لأنها أجرت ٤ عمليات قيصرية ومعها ٤ بنات، المهم الموضوع حى يومياً وتحكى لى ما يقوله كل دكتور.

أعذرنى لقلة خطاباتى فالمكالمة التليفونية تشبعنى أكثر لأنى أسمع صوتك وأشعر بفرحتك وكلامك.

كل يوم أحلم بك ولكنك دائما بعيد، ولا أدرى سبباً.

إلى لقاء قريب .

* * *

«آه يا حبيبتى

أنا التائه فى الألفاظ والشقى بها.

الذى ألفاظه حرفة وفن.

لا ألقى ألفاظاً، هذه الألفاظ (......) كلها خبل وغباوة لكنى أعرف بأن قلبى، وقد دربه قلبك الحبيب.

خفق خفقة حرة واحدة وأرسل

فى كل أنحاء جسدى دم الحقيقة» .*

لأنى أضيق بنفسى حين أعجز عن التعبير، أجول بين كلمات الآخرين، أبحث عن فى حروفهم، والثمار قليل لأن شيئاً لا يحتويك، صرت الآن أكبر من جملتى، وأبعد من أن يتناولك الغير.

ولكن من وقت لآخر أعثر على بيت فى قصيدة ينفذ إلى قلبى، فيزدهى بستانه من جديد، وهنا منبع عذابى، لأن الكلمات تحيلك إلى حياة نابضة، وشتان بين إحساسى الحقيقى بك وبين لغة تشدق بها الأسلاف فى موضوعات جامدة، لم يقتربوا فيها إلى مثل حالتى أبداً، فهل علىَّ أنا – من وحى غيابك – أن أبدأ على أرض بكر! هل ينبغى علىَّ إبداع لغة بديل بحجم حبى لك، إن هذا طموح .. ولكنه حلمنا الخاص، حين أبدعك فى لغتى، لا أريد طرحها لجمهور، يكفينى أن تؤدى غرضى، أن تكون شفرتنا الخاصة، أريد من الجملة أن تحمل شحنتى بكل كهربائيتها وبكل الأثر الذى إشعلته فى دمى لتنقله إليك مباشرة، ليظل ما بيننا قائم لا يمحوه غبار بيئة نعيش تلوثها.

وكما أن لغة الأجداد القاحلة التى حفرت عميقاً فى نص جامد وانشغلت

---

* كينث دكسروث
من قصيدته (مرتا متغيبة)

بإستبطان أغواره، ولم تحفل أبداً بنفوس البشر لأحياء إلا فيما ندر، فأنا ابن هذا التراث الصخرى.

أريد أن أحيل هذه اللغة إلى ماء سلسبيل، أنفخ فيها من روحى، لتندفع موجاته إليك، تياراً إثر تيار .

أريدها مطابقة لعوالم الأحلام بكل تأثيرها وتجسيدها .

أقول برغم أن لغة أجدادنا لا تمدنى بالعون، ولا تسعفنى أبداً.

كذلك فإن ما أقرؤه مترجماً عن لغات أخرى يحتوينى، ولا يحتويك .

أنا أغار من معشوقات الشعراء الذين أقرأ لهم.

لأنهن حظين بمجد الشعر والكتابة السحرية.

وأحسد الكتاب والشعراء الذين وفقوا إلى المعنى المحوم برأسى ، ولا أستطيعه، ولذا .. الجأ إليهم، واستعير بيتاً يكثف بلاغة الحب الخالد، وإن كنت أريد أن يكون كلامى كله منقولاً من أعماق الروح التى تهيم بك، وبرغم كل ما قلت، برغم كل ما أريد قوله، يوقفنى عجزى، يوهن قواى، ويدفعنى للشك فى قدرة نفسى على التعبير.

وابل من هذا كله هو ما يحدث يوم أن يعيد الدهر لقاءنا إن هذا اليوم الذى أراه بعيداً جداً وغائماً يعذبنى قدومه الطاغى، وأخشى ألا أعيشه كما ينبغى .

كنت حين أغيب فى رحلة مدة الأسبوع أو العشرة أيام، أو حين كنت أغيب فى القاهرة لبعض الوقت أعود إليك مزدهراً بالنوار، ويتدفق نهرى فى أرضك الطيبة، ولا أشعر بالجدب إننى أستعيد هذا اليوم .. كل يوم.

وإن كنت أعرف ذاتى الأخرى التى تنفصل عنى فى أحيان كثيرة،

ستنطوى فى خجلها، وتسحبنى فى قفصها الحديدى، ولا تسمح بذاتى الحقيقية لأن ترفرف فى سمائك بأجنحة الحب الخفاقة.

وأجمل ما فينا هو لغتنا السرية التى لا يعيها الآخرون، ولا يتحدث بها غيرنا، فليأت هذا اليوم. وليحدث ما يحدث كل ما فى الأمر أننا سنضحك من أيامنا التى مرت بدوننا، ونسخر منها حين ندخل سوياً عالم بهجتنا الرحيب.

* * *

القاهرة ملهاة كبيرة، وبلدتنا العزيزة مقبرة صغيرة .. ها أنا ذا فى هذه المدينة الصاخبة، فتشغلنى عنك أشياء كثيرة.

هنا ندوة، وهناك فيلم، وعلى المقهى أصدقاء كثر، يتحدثون فى موضوعات شتى.

حياة جديرة بأن تعاش..

قد تطفو بلدتنا من حين لآخر على سطح ذاكرتى، فأنفضها حتى أزحلقها لتترسب فى القاع، ليست حياة تلك التى تتسم بها بلدتنا المسكينة، ولكنها فى أحيان تطفو، ولاتغطس إلى القاع، وتلبش فى يدى وتهزنى هزاً، فلا أملك الا أن أحشو الحقيبة بهدومى الوسخة، فلا وجبة سخنة إلا هناك، ولا نظافة لملبس إلا هناك، ولا حنان ولا .. ولا ..

فأعود إليها مشحوناً بالشوق. وأرتد إلى القاهرة متطهراً .. فما العمل ؟

جئت أول مرة، وكان علىَّ أن أنهى إخلاء الطرف من جهة الانتداب، وقال لى موظف شئون العاملين لابد من مذكرة تعرض على رئيس الجهة، وهذا

الأمر يحتاج أسبوعاً أول شئ فكرت فيه: خسارة .. أسبوع من الفراغ فى القاهرة !! لماذا لا أعود إلى البلد، ولكنى تركت نوافذ الشقة مفتوحة، والثلاجة تعمل، وهناك أطعمة قد تفسد.

قلت أذهب إلى الشقة أنهى هذه الأمور، ثم آخذ قطار الثامنة إلى البلد، إذن سأصل العاشرة مساءً، و ثبت إلى نفسى: من يكون بانتظارك؟ ولماذا هذه اللهفة إلى البلد؟ انتبه إنه لا جديد، نفس حالات الوخم، وعددت المساوئ، فلا ثبت، وأجرب أن أقضى أسبوعاً من الفراغ فى القاهرة، على الأقل لتعتاد حال الاقامة الدائمة هنا.

لا اكتمك سراً، كل يوم يمر علىَّ خلا هذا الأسبوع، كنت أفكر فى العودة فى كل حين، والدليل على هذا أننى لم أكثر من أشياء الطعام، لا كون فى تأهب مستمر، للقفز إلى البلد، ولكنى - ولله الحمد- صمدت، ولم اهتز، وهذا اختبار عظيم، وفقت فيه.

والآن أنا فى موقف المتراوح ما بين الحنين الجارف إليها، وما بين تفوقى على نفسى بلهو القاهرة.

واكتشفت أنك خيط السر غير المرئ الذى يجذبنى إليها.

★ ★ ★

وصلنى خطابك الأخير، وعرفت أن الحياة فى القاهرة تستحق أن تعاش، ولكن لامفر من العودة بين الحين والحين إلى بلدتنا العزيزة، كم هى جميلة ولها سحر، وكم يشتاق الإنسان إلى نسماتها وترابها وشوارعها، كم هى جميلة تلك المقبرة، لاتدرى كم أنا مشتاقة إليها.

★ ★ ★

فى خطابى السابق أخبرتك بكلام كثير ليس لك صلة به، ولكن كل هذه الأحداث بطريق غير مباشر تؤثر علينا لأن كما أخبرتك أن الكلمة والربط والنهى بيد المدام وأن الزوج ماهو إلا خيال متحرك يجلس على كرسى المدير، وقرارات الحريم نابعة من حالتهم النفسية، وهى الآن تعيش فى قلق وخوف من كثرة الإلحاح عليها بالإنجاب (وخصوصا الولد) ويتملكها رعب لاحدود له من زواجه بأخرى، فهى التى بدأت معه من الصفر، ثم تأخذه الأخرى مليونيرا، هى لاتتصور هذا ولكنه ممكن الحدوث حيث بلغت سن الأربعين، والفرصة أصبحت ضعيفة.

المهم علاقتها كويسة معى، يوميا تنادينى بالمكتب فى عدم وجوده، وتشكو لى الشكوى نفسها وكلام الأطباء ورغبة الزوج الملحة فى الحمل، وأنا أنتهز ساعة رضاها وأحدثها عن الاجازة والسفر.

فى آخر جلسة أخبرتنى أنه يمكننى السفر أجازة لمدة شهر، طالما لايوجد عمل للزوج وليس هناك داع للخسارة والمصاريف، ويمكنك سفر شهر أجازة فى خلال تلك الفترة يمكنك البحث عن عقد، طبعا ده كله كلام حسب حالتها النفسية، ولكنى أعتقد أن الأجازة ليست مستحيلة وأنه بالإمكان فعلا اجازة شهر خلال شهر ١١ أو على الأكثر ١٢.

لا تأخذ كلامى مأخذ الجد فهنا لايملك الإنسان القرار ولكن مجرد آلة تتحرك وتعمل وصاحب العمل هو الذى يقرر أى شىء.

★ ★ ★

لم يتصل بى صديقك إبراهيم صديق رغم أن باقى عليه ٥ أيام كما أخبرنى.

فى التليفون حددنا موعدنا الجمعة بعد العيد، وبعد عودتى وجدت أنها مدة طويلة جدا، وأنا كلما طالت المدة أحس بالانفعال الشديد والتوتر، فأرجو أن تنتظرنى يوم الجمعة قبل عيد الأضحى، فى السابعة أيضا، أرجوك لاتنسى حيث أن الإنسان هنا لايدرى بأى تاريخ بالعربى أو بالأفرنجى، التواريخ تداخلت، أصبح ذو القعدة شهر ١١ وذو الحجة شهر ١٢ وتنتهى عنده النتيجة.

★★★

العيد مرة أخرى..

وعيد بأى حال عدت ياعيد..

اليوم هو تكرار ممل لأيام سابقة، أمارس فيه طقوسا لا إرادة لى فى ردها، سهرة مع الأصدقاء على السطح لمشاهدة مباراة الكاميرون وانجلترا امتدت حتى الثالثة صباحا، وصحو مبكر، ثم القيام بالزيارات العائلية المفروضة، بدأتها وحيدا وأنهيتها وحيدا لأن خليل رفيق هذه الرحلة كان نوبتجيا.

بدأت ببيتكم زيارة خاطفة، وتوزيع العيدية على عيال الأخوة، واتخذت طريقى إلى زينات، ومن هناك عبر رصيف المحطة إلى بيت الخالة، قعدت معها قليلا فى الردهة، وكنت فى سباق مع الشمس، أريد إنهاء رحلتى قبل أن تتوسط السماء، وتركب رأسى بسخونتها التى لاتطاق، ولحقت بى فى الطريق سهام، تشبثت بجلدى وصحبتنى إلى بيت الأخت الكبرى.

وهنا انتهى العيد، عيد بلدتنا البائسة، فعدت إلى شقتنا، ومددت طولى

حتى ساعة العصارى البهيجة قليلا، وتردد الزوار حتى الثالثة، فجر اليوم التالى، بدأوا بالمحمدين وحسن وسيد وحمادة وخليل وزينات وكريفة ونجاة.

★★★

وقعت عقد التليفون فى اليوم السابق لوقفة العيد مباشرة، ودفعت المبلغ المطلوب، واخترت النمرة وهى ٦٥٥١٢٩، لاحظى الرقم من اليمين.

أما التشغيل بتاريخ ٧/١٦ فالحرارة لاتأتى مع العدة، إنها تنتظر أياما، حد أدنى يومين أو ثلاثة، وحد أقصى أسبوع وعشرة أيام، مسألة ليست فى اليد، مرتبطة بجدول ونظام خاص بعمل السنترال.

لذا كنت أريد تأجيل مكالمتنا إلى الجمعة التالية بدلا من يوم ٧/٢٠ ليكون فى مكنتنا التحدث من بيتنا.

وأظن أن هذه مهلة كافية لقدوم الحرارة.

إذا لم نتفق على تأجيل المكالمة، فلنحاول طلب نمرتنا، فإن لم تكن، فكما كنت، عند عادل فى البلد، وإن لم يكن فعند صديق القاهرة، وأتعبى قليلا حتى نستقر على تليفون شقتنا.

وهنا سيكون لنا شأن آخر.

كل عام وأنت بخير.

والعام القادم نقضي العيد سويا.

فأرضى العطش مسامها مفتوحة لمائك العذب يانهرى الحنون.

★★★

الآن أكتب إليك على مكتب العمل، انتظمت منذ الأمس فقط ٦/١٩ وكنت

قد زرت الإدارة فى أسبوع سابق لاحصل على رسالتك، ووجدتها بانتظارى، ولما بدأ الاستلام الفعلى جاءنى الرجل المختص بالبريد بالرسالة الثانية المؤرخة فى ٦/١١.

الآن صار لى رقم تليفون وعنوان ومكتب نظيف فى مكان نظيف.. اتفقت مع المدير على يومين مأمورية هما الخميس والسبت غير الجمعة الأجازة الرسمية، وحاولت أن اتفق معه على موعد الصباح ليكون العاشرة، فلاقيت اعتراضا، واتفقنا فى النهاية على التاسعة والنصف.

أنا فرح بالعودة، ولا أدرى لماذا!!.

هل لأن الارتباط بالعمل يلهينى عن ثقل غيابك، فحضورك فى البلد مبهظ للغاية، ووجودى هناك بلا معنى، وأنت الآن بعيدة بشكل مخفف ومحتمل، ولاتحزنى لهذا، ففيه راحتى المفقودة، فى الفراغ لامهرب منك، وفى تلاهى العمل حضورك جميل، لأنه لايخنقنى، فأنا الآن بشعور سوى، فيما سبق وصل معى الإحساس ببعدك حد المرض، لأن الوحدة كانت جليدية وكئيبة.

أقول لك هذا فى الوقت الحالى، ربما هذه هى البداية التى سرعان ما أملها، وأدور ـ مرة أخرى ـ حول ذاتى القلقة، وبدلا من ذكرك الطاغى الذى يأتينى الآن مع ساعات الراحة حين أتمدد على فراش الليل، ومع الموسيقى الخفيفة تتسربين إلى دمى، وتطلبك نفسى، ولا أجدك، كنت أضرب رأسى فى الحائط، الآن أنا بحاجة لاستدعاء النوم لاضمن اليقظة المبكرة، فلا يحسب لى يوم غياب، فى دفتر لايرحم، الكبير والصغير أمامه سواء.

وأنا فرح بالعودة، ولا أدرى لماذا!!.

اتصلت بإبراهيم صديق هذا الصباح مترقباً وصوله، ووجدته على الخط قال إنه وصل البارحة، وقال لى أن أعتذر لك لأنه فى الأيام الأخيرة كان خارج العاصمة، ولم يتمكن من زيارتك.

★ ★ ★

أجلت استكمال الرسالة مرتين، مرة لأنى انتظرت حتى ألتقى إبراهيم صديق لعله يأتينى بجديد، وكان الموعد الجمعة مساء، ولاجديد، غير لقاء حار، ومحاولة صادقة لتجديد العلاقة القديمة، كان يريد أن يسمع ويسمع، وتدفقت بغزارة، وفى النهاية قال لى أنك بخير، وأنه لايؤيد حكاية الاستقدام لمدة شهرين، لأنها مكلفة دون جدوى، وأنه من الأفضل أن تطلبى اجازتك فى موعدها، على أن يكون الاستقدام بعدها، ولمدة عام كامل، ليصبح لدى فرصة للعمل.

فشهر اجازة هو خروج لك من ثوابت حياتك المملة، وتنشيط لحيويتك التى أراها خابية منذ فترة.

ركزى جهدك حول هذا، ولاتتخاذلى.

أما التأخير الثانى، فكان بسبب سفر مفاجىء إلى الإسكندرية فى رحلة عمل لمدة ١٢ ساعة مرهقة لحضور احتفال الإدارة بوضع حجر الأساس لفرع جديد، حضره رئيس الوزراء وبعض الوزراء، وكنت أمنى النفس بلقاء البحر، ولكنهم خذلونى، وجدت مكان الاحتفال على هامش الإسكندرية، من جهة الطريق الصحراوى، وكانت الرحلة سريعة دون أن ألتقط نسمة واحدة من نسائم البحر، فى هذا الصيف اللاهب.

وعدت مقهورا أعانى الحرمان، وتمنيت لو تفعلها يوما. أن نرحل معا فى رحلة حرة إلى الإسكندرية التى أحبها وأجهلها.

★★★

... كل عام وأنت بخير وصحة وسعادة..

سلامى وأشواقى مع أمنياتى لك بالتوفيق.

مرسل صورة البطاقة مع الأخت الممرضة من أبوكبير حيث أنها أنهت العقد بعد عام لظروف خاصة بزوجها وأولادها الأربعة.

★★★

حاول الاتصال بالأخ إبراهيم صديق وتتعرف منه على وجهة نظره من ناحية السفر، وترسل الرد إن كان هناك فرصة.

أرسلت لك كارت للعيد ونسيت أكتب جمهورية مصر العربية وجميع العنوان صح لا أعلم إن كان وصل أم لا.

أكتب لك الآن الساعة ٣,٥ ظهر الجمعة والسكن زحمة وزيطة وفرح حقيقى بالسفر، الكل فرحان بسفر فاطمة الممرضة، والكل يتصور إنه يومه، يوم عودته، التسجيل صوته عالى جدا، جميع أغانى عدوية، التى لم أسمعها فى حياتى، وأغانى غريبة أخرى ورقص وغناء، فرح حقيقى فعلا، وعقبالى يارب...

★★★

لا أكذب عليك حين أقول إننى لم يعد لى طاقة على الصبر إحساس بالجفاف الحسى، الذهنى، الجسدى، فتور، سرحان فى اللانهائى.

يوميا أجلس فى البلكونة بعد الثانية عشرة والناس نيام، وأنظر فى البعيد.. البعيد، وأستعيد أيامى، شريط طويل حافل وأتأمل نفسى الآن، شتان بين الحياة الحية الممتلئة بالحيوية والحركة والنشاط الذهنى والانتظار واللقاء، ولايوقظنى إلا صوت العربات الفارهة المسرعة.

لم يعد لدى القدرة على كتابة خطاب لأنه ليس عندى ما أقول إلا أننى أصبحت آلة، تتحرك تلقائيا، بدون وعى وبدون إرادة، وأملى الوحيد أحسبه باليوم، فى العودة والجلوس إليك، ومع العائلة الكبيرة (صغيرا وكبيرا) إنها لمتعة لاتساويها أموال العالم.

كم من الإخوة أرسلوا خطابات عديدة، ولكنى لم أستطع الإمساك بالقلم والرد عليهم، لأننى عندما أكتب سأكون بلا مشاعر.

أخاف على نفسى من أيامى القادمة، أخشى أن أتغير رغم حرصى الشديد على أن أظل كسابق عهدى، ولكن قدرتى على الاحتمال.

أعتقد أنها وهنت، بكائى فى وحدتى أصبح أكثر، ومن داخلى، كما أيامى الأولى.

ليس هناك حل أو عمل شىء مغاير، أحيانا أقدم على أشياء تلهينى وتنسينى ولكن سرعان ما أعود إلى حالة الاكتئاب، حتى جيرانى (الممرضات) لم يعد هناك جديد للحديث فيه، كله مكرر ومعاد.

جارتى الأولى: عاملة لها عامان إلا شهرين تسمعنى - إجبارى - جميع أغانى عدوية يوميا وبأعلى صوت عندما ينتهى العمل ونصعد للسكن، أول شىء تعمله أن تفتح زر النور وتضغط على مفتاح المسجل فى الوقت نفسه، يبدأ عدوية، لا أستطيع منعها فلها العذر فلقد أصيبت بالضغط وتزوج

زوجها أثناء السفر وأرسلوا لها بالواقعة فأصبحت كالمراهقة تتمسح بأى رجل كالقطة رغم أن لها أولاد فى الثانوى والإعدادى.

أما الثانية والتى تسكن معها الحجرة فهى مازالت حديثة بدلا من الممرضة السابقة التى أرسلت معها الخطابات السابقة فأعتقد أن لها قصة حب فاشلة، وقد جاءت للهروب من الفشل، دائما وحيدة وتبكى ولم نتعرف على الموضوع كاملا حتى الآن.

أما الحجرة الأخرى ففيها الممرضة الأولى التى تفكر بزوجها ليل نهار وطفلها الصغير الذى تركته ٧ شهور وهو الآن فى عامه الثانى، وتحمل كثيرا من الشك تجاه الزوج أن يكون على علاقة بإحدى بنات المصنع الذى يملكه (مصنع زجاج) بسمنود، فعندما يحدثها بالتليفون، وتسأله عن حاله، فإذا أجاب أنه كويس ومبسوط يشتعل الحقد والشرر وتغتاظ أكثر، فهذا يعنى أنه مبسوط فى غيابها، يعنى أنه فى حالة خيانة فترسل له بخطاب تسبه وتلعنه لأنه لايعانى فراقها، دائمة السرحان، تجدها فى غاية الفرح والسرور عندما يترجاها أن تعود، أن تعود فى أقرب فرصة.

أما الثانية فهى نوع غريب أول مرة ألتقى بهذا النوع من البنات، لم تتزوج بعد، إنها المرأة الغانية التى تسحب جميع الرجال بجميع أنواعهم، متزوج أو غير متزوج، لا أدرى كيف، ولكن كل مافى الأمر المكياج والكلام الجرىء جدا جدا والحركات الإباحية جدا، تتحدث فى كل شىء عن زوجاتهم وحياتهم معهن لدرجة أنهم (الدكاترة) يعترفون لها ببعض أسرارهم، وهى تحس منها أنها مباحة للجميع، ولكنها تعرف ماتريد، تريد الهدايا القيمة فقط.

وقع فى حبها طبيب الأسنان الذى تعمل معه، وله زوجة وطفلان، أصبح كالخاتم فى أصبعها يتمنى رضاها بأية طريقة، يشترى لها كل ماتحتاجه من أكل وملبس فخم وغالى جدا، وهى تزيد غيرته بأن تلعب مع الآخر وبالطريقة نفسها جميعهم من وراء الآخر، هى من نوع البنات اللاتى لايهمهن شىء تحب الفسح والجرى والنوادى والمصايف، كله مباح مع مصرى أو عربى ثرى لايهم، بعد كل هذا تحكى لنا عن مغامراتها مع الأطباء، فهى ذكية، وسخرت الذكاء فى هذا الموضوع.

المهم:

هذا ما كنت كتبته قبل المكالمة، وأنا فى العيادة، فإذا بالتليفون، الحمد لله، سمعت صوتك، روحى ردت إلىّ، على فكرة عندما تطول المدة أصاب باكتئاب فظيع.

سعادتى لاتقدر بعد المكالمة.. تغير حالى بعض الشىء، وأسرعت بإرسال الخطاب.

★ ★ ★

أيتها الجالسة فى شرفة الغربة تنظر إلى ليل الصحراء المزروعة بعمارات الأسمنت، أجلسينى أمامك، وحدثينى، قصى علىّ كل خاطرة تبرق فى عقلك، فى صحوك ومنامك.

فأنا الجالس فى شرفة الوطن تمتلىء عينى بوجوه الأقارب، الكبار والصغار، تسيجنى عنهم غربة، ويسحبنى منهم اغتراب، غربة بسبب بعادك، واغتراب بما فاض فى رأسى من أفكار، حجزتنى عنهم، وأحالت الجمل إلى كلمات مهشمة، غير مكتملة، لا صفاء داخلى نحو أحد طالما أنت بعيدة عنى،

أنت من تصالحين نفسى على نفسى، وأنت اللحن الذى ينضبط عليه رقصى وغنائى.

أنا الآن حالة مؤجلة حتى تعودين..

جميل ما قصصته عن رفاق رحلتك، عين ذكية لماحة، وحس إنسانى راق، لا إدانة مسبقة حتى وإن كانت الإدانة الأخلاقية تصادر الشخص فهى قشرة سطحية إنما أعماقك لاتدين، بل شفقة وحنان على الساقطين، إنك وصفت لى قصصا لطيور مذبوحة، تترنح فى حبها على ظن أنه فرح بالحياة بينما هو نزيف، ونزيف.

لكل فرد من هؤلاء قاتله، والقاتل هنا، يقبع فى أحراش الوطن الذى ترينه برينا، هو من دفع بهؤلاء إلى سجنهم، وهو من جعل الرجل الذى لايريد أن يكون نذلا إلى الموقف الذى يدير ظهره لأنثاه، محبوبته، ومنتهى آماله، وهو من دفع بطبيب الأسنان ليعشق بين جدران الزنزانة الخانقة تلك اللعوب التى (هرشت) اللعبة، وداست على القيم والمبادىء التى بدت لها جوفاء فى زمن الواقعية المهزومة، وهى الآن تمارس الإمكان فى الحياة المبتذلة، إنك ياحبيبتى رائعة فى رأفتك وحنانك، وهذا عهدى بك.

وأنا حين أذكرك لا أبحث عن ملامح وجه وجسد إنما يتدفق بداخلى نبع من الحنان الإنسانى هو أنت.

فكونى على سجيتك، وأكتبى لى عما تحسين وتتألمين من أجله، وعن ساعات فرحك النادرة، لا تظنى أن الحياة غنية بما تراه العين، غنى الحياة فيما نستشعره وبما نتمسك به من مشاعر فياضة، تدوم فى نهارنا وفى ليلنا.

ومحنة الفراق التى نعيشها الآن ستكون يوما ما عرسنا الخاص.

★ ★ ★

معذرة فقد أصبحت الآن أعيش حالة العودة السريعة، وكأنه لم يعد باقى من الزمن إلا القليل، أيام أو ساعات، لم يعد لدى ما أقول هنا، وكل الأفكار والأحلام والآمال أصبحت هناك، معك.

وتفاجئنى النتيجة باقى حوالى ٥٣ يوما.

أصبحت أشغل نفسى بالقراءة بعد اتصال ابراهيم صديق، فقد زارنى فى المستشفى زيارة سريعة (٥ دقائق) وكان معه رواية عائلة بسكوال دوارتى، وديوانه الجديد، طبعا بدأت بالرواية، وإذا به يتصل تليفونيا ويسأل عنى وعن أخبار الديوان فقلت: خلصت الرواية وأحاول مع الشعر، ولكنى غير متذوقة للشعر.. سأحاول مرة أخرى.

تصور أن الشعر لا أتذوقه إلا من خلال قراءتك له، وأستمع إليك، وأكيد بأحس به من خلال صوتك وإحساسك أنت به، قراءتى أنا صعب إن لم يلمسنى بقوة لا أحس به.

طلبنى مرة أخرى وبإلحاح، قلت: سأكذب عليه هذه المرة خاصة إنه وعد أنه ليس هناك كتب أخرى حتى انتهى مما لدى.

المهم.. إيه الأخبار؟ قلت: أعجبت ببعض المقاطع حتى أنى كتبتها فى ورقة ففرح جدا، ولكنى حزنت لأنى كذبت عليه.

على فكرة من خلال كلامه معى فى التليفون اكتشفت أنه عامل زى المثقفين يتكلم كتير كلام فلسفى أجوف «الإنسان لابد أن يكون متميز» «أن يكون له بصمة و.... و......».

حدثنى عن زوجته التى ارتبط بها منذ ١٢ سنة.

زارنى مرة أخرى وأحضر معه ديوانه الثانى لأطفال الحجارة قرأته فى العيادة بسرعة، ثم أمسكت بمجموعة قصصية لكاتب من هذه البلاد، واكتشفت أنه إنسان حساس جدا رقيق جدا لغته سهلة بسيطة، وبعض القصص بعد أن تهتز لها بتدخل الكاتب بنفسه ليشرح لك ظروف اللقطة، المهم استمتعت بها.

★★★

خرجت يوما ما للذهاب لكلية البنات التابعة لإحدى الجامعات هنا، بخصوص شهادة الثانوية العامة لبنت المدام حيث أن الأسرة كلها بالقاهرة، وكليات البنات لايدخلها إلا الحريم، فوكل إلى بهذه المهمة وكانت فرصة للتجول داخل المدينة ورؤية شوارعها ومبانيها واستنشاق هواء جديد غير مستعمل ولو أن هنا ليس هناك هواء على الإطلاق.

كانت الشوارع واسعة منظمة والمبانى مرتفعة قليلا ونظيفة والمحلات مبهرجة وكثيرة، أسواق الشعلة، أسواق بندة، أسواق العقارية، مفروشات، ديكورات، منتهى الفخامة، لا روح ولا حياة على الأرض، كلها يلفها الصمت، ليس بالشوارع من يمشى على قدميه، ليس هناك غير سيارات فارهة كلها جديدة وجميع أنواع الماركات لايخرج منها عادم ولاتشم رائحة، كله جديد فى جديد.

المهم... وصلت الكلية مع السائق الفلبينى، كل ماتراه العين من الخارج سور مرتفع جدا كأنه سور لسجن له عدة أبواب خشبية كبيرة، وليست بوابات حتى لاتظهر من بالداخل دخلت فوجدت كل الطالبات يرتدين

العباءات السوداء والإيشاربات السوداء، ومجموعة منهن يفترشن الأرض، ليس هناك مقاعد أو كافيتريا أو حتى أنتريه للجلوس بالمبانى كلها، وكأن ليس من حقهن الجلوس والتحدث، لم يلفت نظرى واحدة منهن، فالجميع كتلة واحدة، الشكل نفسه، البشرة السمراء المصفرة، الشعر المنقوش الغير مهذب، والجيبات الطويلة الخضراء التى تتدرج فى اللون حتى تصل إلى الزيتى والبلوزات سوداء أو خضراء، ليس هناك أى ذوق فى اختيار الألوان، كل مالفت نظرى، أحمر الشفاه، الذى يملأ الفم عن آخره بطريقة عشوائية، ليس له علاقة بلون البشرة أو الخدود، وكأن الماكياج تركز فى وضع أحمر الشفاه، كلهن بدون استثناء، والحلوة شوية مغرورة.

الأهم من ذلك أنك تجدهن حين العودة مكدسات عند البوابة كأطفال الحضانة بانتظار عودة نويهم لأخذهن بالسيارات، ليس من حق أى واحدة أن تعود بالتاكسى أو تتصرف بطريقتها.

كلية صامتة ليس بها حياة، أشخاص أغراب ليس هناك علاقة حية بين المجموعات، صوتهن شاذ، طريقة الكلام غريبة، أما تعاملهم مع المصرية فبحذر وتحس بالحقد قبل أن تقترب أو تتعامل معها، طريقة معاملة استفزازية، ليس هناك ود أو ترحيب أو أسلوب فى الحديث.

طبعا هذه الإنطباعات من تكرار زيارتى عدد كبير من المرات، وليس انطباع زيارة واحدة.

★★★

لا شاغل لنا الآن غير متابعة مايحدث، وخوفى عليك بلا حدود، حين أتصور ماهو أعظم، فأرجو أن تمسحى عنى قلقى.

فى صباح الخميس ٨/٢ كنت أهيىء نفسى لقراءة رواية جديدة لأحد الأصدقاء، الراديو كان فى حضنى كما اعتدت، وكما تعرفين، وصحوت على النبأ (غزو العراق للكويت) فتوارى كل شيء، وبهتت أحداث الرواية، ولم أسمع منها غير نبض يحتضر وسط صخب شامل وقوى، ولم أقدر على التعامل معها، وكان الزميل بانتظار الرأى، فقلت كلاما سلبيا بطريقة قال عنها الحضور أنها جارحة، فصار الزميل عدوا لايطيق لى كلاما، ينظر إلىَّ شزرا، ويعتزل جلستى، وكنت أراهن على عودته إلى أوربا حيث يقيم، ولأننى أحبه وحريص على العلاقة معه، حزنت جدا على فقدى إياه.

وربما كان هذا أحد الدوافع القوية لتقبل رحلة العريش، كانت ضرورية للاختفاء عن القاهرة لمدة أسبوع، حينئذ تكون مدته قد انقضت، وعاد إلى مقره.

سبب آخر هو مافعلته شقة القاهرة، حيث ارتفع الماء فى كل الثغرات، ومن مسام الجدران، ومن بلاط الأرض، وكان العيش فيها مستحيلا.

وزينات كانت قد وجهت لى الدعوة عبر التليفون . فلم أقبل ، ورحلت إلى البلد ، فحدثتنى من العريش مرتين ، ووصفت لى بهجة البحر والمسكن الذى يقيمون فيه ، وجمال المدينة .

قلت : لا اذهب إلى نزهة لا تصحبنى فيها زوجتى .

قالت : ستبتهج ببهجتك .

وكان لا مفر ، قلت لنفسى إنك لم تر سيناء فى حياتك ، كما أنك لم تعبر قناة السويس ، فلم لا تفعلها وحالك كما تعلم وكلمت المدير من البلد ، وركبت اتوبيس السابعة والنصف من الزقازيق إلى العريش .

وأوصلتنى الصدفة إلى الشاليه الذى يقيمون فيه ، كل شىء جميل ويدعو للفرح ، ولكن فرحى لم يصل إلى ذروته كأن شيئاً يجذب هذا الفرح إلى مستقره ، فكانت الأشياء أمامى كالصور الجميلة ولكنها لا تبلغ قلبى ، لأنى فى كل مشوار أراك إلى جوارى ، وبنذالة أنفى الناس الذى دعوننى من حولى لنقيم فى الشاليه وحدنا ، ونسير على شواطىء النخيل وحدنا ، ونتشوق وحدنا ، ونجلس على مقاهى العريش وحدنا ، وأدرت الكثير من الحوارات معك .

أنا الآن أعيش عودتك ، فى كل مرة – منذ أعلنت موعد قدومك اعود إلى شقتنا كأنى سأجدك بانتظارى .

★ ★ ★

عندما يصلك خطابى هذا يكون قد مرَّ على زواجنا خمس سنوات وكأنها خمسة شهور أو خمسة أيام ، أو كأننا لم نتزوج بعد ، نعيش معاً قصة حب ليس لها نهاية ، معك أعيش أحلامى ومستقبلى .

تصور مرت السنوات وكأنها لحظات حب دائمة ، حبى لك لم يتغير وكأنى فى بداية علاقتى بك .

عندما اطلب نمرة التليفون تظل ضربات قلبى تدق بسرعة حتى ترفع السماعة ، وبعد سماع صوتك تهدأ نفسى ، رحلة الذهاب بها سرعة واشتياق ، ولحظة العودة يأس . ولا جديد مجرد سماع الصوت ، أريدك كلك ، أرى وجهك الجميل ، انظر فى عينيك ، اسمع صوتك .

ربنا يهون ويقرب الأيام ونلتقى ثانية ، ولا فراق بعد المرة .

كل سنة وأنت طيب فى صحة وسعادة ..

فى الشهر الماضى وعندما وقع غزو العراق للكويت ظننا أن هناك سفراً بين لحظة وأخرى . ولكن لم يحدث ، واشتريت كاسيت متوسط الحجم ، والحمد لله وجدت أن هناك (برنامج موسيقى) من الثامنة حتى الحادية عشر صباحاً مثل البرنامج الموسيقى الذى شبه إذاعتنا ولكنه باللغة الانجليزية ، فرحت به جداً ..

تصور أنى لم افكر فى شراء أى شىء من هنا حتى الملابس أفضل شرائها من مصر لأن الذوق هناك أحسن ، والأسعار تعتبر مرتفعة هنا ، كلما نويت شراء شىء ارجع ثانى واقول بلدنا أولى ، وأنا معى الفلوس فما الداعى للشيل وخصوصاً بعد ارتفاع ثمن الطائرة والوزن .

أما عن الأحوال فى السكن فبدأت تتغير وتسرع معها الأيام حيث استقرت الممرضة زوجة صاحب المصنع لأنه أعطاها الأمان ، واعتذر كثيراً، ومنحها فرصة البقاء حتى تنهى عامها الأول ثم تنزل بأى طريقة حتى لو بالشرطة .

أما الممرضة اللعوب فقد وقعت فى الحب منذ رأته فى اللحظة الأولى ، نظرت إليه طويلاً ، وأسبلت عينيها المرسومتين جيداً وبدقة حتى رأته وراءها فى عيادة الأسنان ، تعرف عليها بسرعة . مصرى ، شاب ، جذاب ، له لحية خفيفة ، يرتدى الجينز والتى شيرت ، والحذاء الشيك الذى لفت نظرها من أول نظرة ، يعمل بمحل البقالة المواجه للمستشفى .

بدأت العلاقة بالتليفون ، وتطور الحديث ، وتطورت معه العاطفة حتى باتت تبكى وبحرقة إن لم يحدثها يومياً . فى ساعات الصلاة يغلق الجميع المحال ويذهبون للصلاة بدون وضوء ، وصاحبنا يغلق عليه المحل ، ويظل يحادثها وقت الصلاة .

حتى جاء يوم وسألته هل أنت مرتبط ؟ تنصل من الإجابة فى الأولى ، ولكنها ألحت عليه ، نعم أنا خاطب بنت خالتى ، ولكنها صغيرة وليس لها تجربة ولا تعرف كيف تتحدث ، حزنت اللعوب حزناً شديداً ، وظلت تبكى طوال الليل والنهار ، فهو ليس لها . ولكنها (أصرت) فى نفسها أن تجعل لها هى ، وهى فقط .

وبدأت درجة حرارة الحب والعاطفة تزيد وجرعة الكلام الجرىء المغطى الذى لا يجرؤ الأزواج على التحدث به ، ولكنه رجل فى غربة ووحيد . بدأ يجاريها ، وبدأ يحكى لها عن حياته ويتعلق بها أكثر وتفرح هى أكثر ، ونعيش معها الآن ٢٤ ساعة أحداث الحب المفاجىء .

كان لها صديق بالزقازيق تضع صورته على السرير ، وتخلى عنها لحظة الجد ، وارسل لها أنه ينوى السفر إلى أوربا للعمل ليوفر لها فرصة حياة مرفهة ، أحست بالهزيمة تجاهه ، وضياع حب سبع سنوات ، لذلك عندما رأت فريستها الجديدة تمسكت بها وبعنف وقوة ، وليس لديها أى استعداد للتنازل عنها ، ولا أدرى ماذا تخبىء الأيام ؟

صارحت حبيبها الأول (طبيب الأسنان) بالحب الجديد وأوهمته أنها كانت على علاقة قديمة به فى الزقازيق ثم حدثت قطيعة ، وما أن رأته حتى رجع الحب من جديد ، وهو يصدق كل ما تتفوه به ، لأنه ذليل تجاهها ، يشترى لها الذهب ، الكاميرا ، الكاسيت ، الأكل ، بدون علم زوجته ، وإن كانت تشك .

حكت لى أنها كانت غاضبة عليه خاصمته مدة أسبوع ، كان يتوسل إليها أن تبتسم ، وترضى عنه ، وتحلف أنه انحنى ليقبل قدميها ، ولكنها أحست بذله وضعفه وكرهها له فى نفس الوقت .

أما المرضة الجديدة سأحدثك عنها فى الخطاب القادم . فقد بدأت تستريح لى وتحكى لقطات من حياتها . لها أيضا حكاية ، وما سفرها إلا هروب من الواقع المر .

★ ★ ★

عاد سبتمبر .. وآه من عودة سبتمبر .

عاد مضمخاً برائحة الذكريات الجميلة ، انكسرت الحرارة قليلاً . ويبدو أننى سأنسحب من الشرفة بعد قليل ، وعدت – فى الأجازة الأخيرة – إلى حجرتنا الأثيرة .

وتأكد حضورك من جديد ، كأنى كنت فى رحلة ضياع مؤقتة ، ووصلت إلى مرفأى ، ولم أجد أحداً بانتظارى .

اعيش هجيرة صحراوية خالية من مظلة للحنان ، وأنت نسمة الحنان فى حياتى ..

عاد سبتمبر ، وكان لابد أن تعودى معه ..

سيظل هذا الشهر خالداً فى حياتنا ، فماذا يثير فيك سبتمبر ؟ فى أحد أيامه ارتديت حلتى الجديدة ، وسرت بين الأقرباء إلى المضيفة ، لأضع يدى فى يد أبيك ، وكنت حريصاً على أن أكون مغيباً ، لأنى لا أطيق الوقوف على خشبة مسرح كثيف الإضاءة وتبدو لى الصورة – الآن – كأنها من زمان آخر غير زماننا كان حولى أصدقاء لم يعد لهم وجود فى حياتى ، وكان حولى أقرباء رحلوا عن دنيانا ، وكنت اعيش مشاعر سقطت فى غياهب عميقة ، وكنت امتلك فرحاً للحياة ، داسته الحياة .

فى بيتكم رأيتك فى ثوب العرس الأبيض ، وصحبتك إلى السيارة التى دارت بنا بلدنا التى نأت عنى كثيراً .

وكنا وحدنا فى شقة العرس ، وعشنا غربتنا فى الحى الآخر عاماً كاملاً، وشحبت منى ذكريات العام الأول ، أو كنت اظن أنها ضاعت .

هاهو الساكن الذى أقام بها بعدنا يتركها ، ويدعونى عادل لسهرة فى فراغها ، واظن أنه قصد إلى ذلك ليحاول تأكيد ذكرى شعر أنها خامدة .

وتحرك كل شىء بداخلى ، عام كامل قام من مرقده ، وتأكدت بأن شيئاً لا يضيع ، والغريب أن الشعور بذكرى العام هزتنى بعنف لدرجة أننى أشعر بتفاهة ما اكتبه الآن ، لأنه بحاجة لاستعادة كاملة ، واستعادة الأماكن جهد كبير .

وسبتمبر يعذبنى بذكرياته ، لقد عاد سبتمبر بدونك .. ولكن عودتك ستبعث مرة أخرى ، ونبدأ من جديد سأقول للأيام لا تسرعى ، انتظرى وسأحاول أن اعيش فيها أيامى السبتمبرية لنذوق بهجتنا الأولى .

حاشية :

سأكون فى البلد الجمعة ٩/٢١ ، إذا كنت خارج المستشفى وكان من المناسب لك أن تتصلى تليفونياً ستجدنينى بانتظارك فى نفس الموعد الخامسة مساءً ، وإذا لم تسمح ظروفك فموعدنا ١٠/٥ كما اتفقنا .

★ ★ ★

غلقت الأبواب والنوافذ ، ومكثت فى الظلام الخفيف ، أجول بقلق فى الشقة ، ساعة القيلولة التى ارقب فيها التليفون ، وكنت دخلت به الغرفة ، ومددت جسدى على السرير ، وكانت نفسى تتوق للسيجارة فأؤجلها خوفاً من أن تطلبينى فاتأخر عنك لثوانى ، واترك جسدى الساكن ، يقاوم النوم ،

ورحت استمع لنشرة الـ B.B.C منتبهاً لمتابعة الأحداث التى تغير كل شيء ، وتؤخر عودتك .

ولكن جرس التليفون لم يدق حتى الخامسة ، فتشجعت وأشعلت سيجارة فى الردهة ، وأنا اتخفى حتى لا يلمحنى أحد فيدس بوزه بيننا .

وظل التليفون آلة صماء ، لا ترسل إلىّ صوتك ..

وقلت لاطمئن نفسى : ربما اخطأت فى تاريخ اليوم ، فكتبت ٩/١٤ بدلاً من الجمعة ٩/٢١ .

ودق جرس الباب ، وبدأ الاقتحام ، حسن يحمل لى ذرة مشوية ، وكانوا يقميون مهرجان الذرة فى بيت العائلة . ودعانى للمشاركة ، فاعتذرت .

★★★

ليس لدى من الكلام ما يكتب ، فالوضع كما أخبرتك بالتليفون ، الشغل أصبح ضعيفاً يكاد يكون معدوماً بحوالى ٩٥٪ كل اليمنيين سافروا بعد غزو العراق للكويت ، وهم زبائن المستشفى ، وإلى الآن لا تعرف مصير العاملين بالمستشفى ، فلا الأطباء يريدون البدء بالكلام ، ولا أصحاب العمل أبدوا أى تغيير أو مبادرة يفهم منها شئ.

كل الأمور ستتضح خلال أول الشهر.

أخبرنى إبراهيم صديق بالتليفون أنه من الصعب على أصحاب المستشفى إغلاقه ، ولكن سيكون هناك البديل عن اليمنيين سواء مصريين أو جنسيات أخرى ، وأن أصحاب المستشفى أكيد حسبوها كويس قوى ، قبل أن يتخذوا أى أجراء بدأ أصحاب المستشفى بشراء بعض المحال التى تركها اليمنيون فهى فرصة ، اشتروا مطعماً فى نفس الشارع ، وهناك كلام بإحضار عمال من الزقازيق.

وقد صرحت لى المدام خلال دردشة أن تنزل مصر لإحضار العمال ثم تعود بعد شهر ، وكلام عن النزول غير مؤكد .

لا تنتظر تليفون الجمعة ١٠/٢٦ لأنه ليس هناك جديد وسأؤجل المكالمة إلى ١١/١ (الجمعة التالية) ربما يكون هناك جديد بموعد السفر أو ميعاد الحجز.

وإلى لقاء قريب

★★★

هيأت نفسى لك ..

وجاء سبتمبر دونك ، وكنت أمنى نفسى أن نقضى معاً عيد ميلادك القادم ، وسأعيشه وحدى هنا .

قلق رهيب أن أرتب لقدومك ، ثم يتغير الموعد . وأعرف أن هذا القلق ضعفاً بالنسبة إليك . فلا أملك إلا الدعاء بالصبر والبحث عن تلهية برغم أن التلاهى مستنفذة ، وخنقت فى نفسى بهجة اللقيا ، وأزلت تلك الصورة الممسكة بمخيلتى ، ورحت اعيد ترتيب الأمور من جديد.

فى المكالمة الأخيرة اضطرب قلبى بشدة ؛ لأنى كنت أحلم بالعودة ، وكانت الإحباطة الكبرى ساعة أن أعلنت عكس ما أتوقع ، والخوف كل الخوف من الحلقة الجهنمية التى تسحبنا فيها المدام ، لذا فأنا أظن أنه لا نهاية للأمر ، لأن المصداقية غير متوافرة ، ولو كان الحسم منذ البداية على أن موعدنا هو يناير ، كان الأمر سيصير مختلفا .

مفاجأة:

إن قدومك حفزنى ، فعملت بهمة ، وتجمد لانجز النص ليكون بين يديك ، عند العودة .

انتهيت منه بالفعل ، وتركني مجهداً وفارغاً تماماً لامتلئ بحضورك.

★★★

وحشنى وحشنى خالص

نفسى أكون فى حضنك فى هذه الأيام الباردة.

أطول شهر فى التاريخ هو شهر ديسمبر ، أيامه طويلة ، ويمر ببطء غير معقول ، وكأنى مخنوقة ، لا نوم ، ولا أكل ، ولا مزاج لعمل شئ ، ولكنى مجبرة على العمل والأكل والنوم.

سنلتقى قريباً

مع ألف سلامة.

غياب فى الغياب

* * *

هبط من قطار العاشرة مساءً .

كان وحيداً على الرصيف ، كما كان وحيداً فى صالة الانتظار حين اتفقا على اللقاء معاً ؛ ليقضيا يومين فى أحد فنادق القاهرة.

أنحدر به الرصيف إلى أسفل متجهاً إلى شقته متوارياً عن العيون ، الضوء الشحيح الساقط من البابين المواربين للمقهى الواقع ما بين الميدان والشارع الفرعى سمح له بإلتقاط وجه الخال فى ركن المقهى الضيق.

انعطف إليه ، فرحب به الخال بشدة ، أمسك قلب الجوزة بيد وأحتضنه باليد الفارغة .

– أين كنت فى هذا الوقت المتأخر ؟

– بالمطار .

– ولماذا لم تعد معك ؟

– لا أدرى .. قالوا ربما تعود فى رحلة أخرى.

– اتصل بها .

– سأحاول .

وشده من يده ليلبى دعوته فى شرب الشاى . ركن جسده المهدود ، فردت إليه عافيته.

فى الجانب الآخر لمح من المساحة المفتوحة بين الضلفتين وجه صلاح.

فى نفس جلسته المسائية ، يعود بالكرسى إلى الوراء رافعاً رأسه إلى شرفتها ، ويطلق دخان سيجارته فى الهواء.

حاول السيطرة على نفسه ليبدو متماسكاً أمام الخال ، وصرخ دون وعى منه : القذر .

سأله الخال مندهشاً : من ؟

– لا أحد .

لم يرد تعكير ساعة صفوه الوحيدة ، فهى فسحة يومه ، يعود من العمل متأخراً ، يتناول لقمته ، ثم يغير خلعته ليرتدى جلباباً نظيفاً ، ويصعد الأمتار القليلة ما بين الدار والمقهى ليتخذ نفس الموقع فى ذات الركن المظلم يحتسى كوباً من الشاى ويدخن حجرين من المعسل . هنا تنقضى سهرته الممتعة ليعود إلى حجرته فى بيت العائلة .

أما هذا النذل الممدد بجسده الميت على الجدار المقابل فإنه لا يفارق المكان ليل نهار ، لا يكف عن التحديق فى النوافذ والشرفات ، ولا يمل ملامسة أطراف شعره الناعم ، ينفث دخان السيجارة ، ويأكل ساندوتشات الرومى والزيتون فاتحاً أزرار قميصه الخفيف الذى لا يبد له فى صيف ولا فى شتاء ، مفاخراً بشعيرات سوداء حقيرة بارزة فى صدره ، قال : سأنتظر حتى ينهى الخال سهرته واتقدم إليه لأطبق أصابع اليدين معاً على عنقه حتى أقضى عليه.

وانتبه إلى صياح عنيف مزق صمت الليل ، أوسع الفتحة ليقف بين الضلفتين ، فوقعت عيناه على الأستاذ دسوقى وهو يكيل الضربات فى وجه صلاح.

أراد الخال التقدم لوقف العراك ، قال له : لا دخل لنا بالموضوع.

- دسوقى رجل فى حاله فلماذا يفعل هذا ؟

- الآخر قليل الأدب . لا يكف عن البصبصة للست سميرة .

خرج الأستاذ على ابراهيم من ظلام الشارع ليشد زميله إلى الخلف : أعقل يا دسوقى .

- هو خلى في عقل .

وجره عنوة نحو الرصيف ، ثم عاد إلى صلاح ليدفعه من ظهره : الله يسهلك .. شوف لك حته تانية .

بعد أن هدأ كل شئ ، وعاد المكان إلى سكونه ، أراد إكمال السهرة مع الخال ، فلم يعثر له على أثر .

«أين أختفى ؟

ماذا يحدث لى فى هذا المساء العجيب ؟

فى أى زمن أعيش ؟ أنا موزع ما بين زمن الرواية وزمن الواقع ؟

من هو الحى ، ومن هو الميت ؟

لا يهم ..

فلا عش الحالين معا .. أنا دائما على الحافة ، ما بين ليل ونهار ، حب وكراهية ، واقع وخيال ، ماض ، وحاضر الحقيقة المؤكدة هى الوعد بالعودة، ولم تعد .

هل احتجزوها فى اللحظة الأخيرة ؟ وما دافعهم لهذا ؟

أهو عقاب لى ، أم عقاب لها ؟

لكن .. كيف لم تخبرنى بالتأجيل ، أو بالغاء الرحلة ؟

ها أنا أترك معلقا ، مزيد من الدفع نحو الحافة .. هذه المرة تضاف حافة (الحياة والموت) ، فأنا اتنقل ما بين الموتى والأحياء ، يتداخل العالمان معا دون حاجز ، كأن ما يحجز بينهما مجرد غلالة شفافة ، لا تمنع الرؤية ، بل تؤكدها ، كل منهما يطلع على الآخر دون جزع .

والطريق إلى بيتى مظلم كأنهم فجأة نزعوا عواميد النور ، بصيص ضوء لايكشف شيئا ينبثق من ثغرة هنا ، أو ثغرة هناك .

لا مفر .. أعود إلى بيت أمى المشيد بالطين اللبن الذى أزلناه يوما لننشىء مكانه بيتا من الحجر يشتمل على شقتين .

إنها هناك فى بهاء نور النيون بوجه صبوح شاب ، تماما كما وصفته فى رسالتها ، تتحدث مع الأخت الكبرى عن الإعداد للعرس ، أخذته في حضنها ، وقالت : كيف حال العروس ؟

- هى بخير يا أمى ، وتحملنى السلام لك .

- أرأيت كيف تختار أمك ؟

- نعم العروس يا أمى .

تجمد زمانها عند هذه اللحظة ، تظن أنه عائد من زيارة ، هى لاتعلم أنه كان بانتظار عودتها فى المطار ، قال : سأخفى عنها خبر سفرها ، ولا أعلمها بتأخير العودة حتى لاتحزن .

عاونته الأخت فى وضع الوسائد خلف ظهرها ، فراحت فى شطحة طويلة

. يبدو أنها ترى أشياء تسرها جدا ، لأن البسمة لاتفارق وجهها الخالى من الغضون ، سحبت طرحتها البيضاء إلى الوراء ، وقالت : كنت تسير فى الطريق الخطأ .. تلخبط قلبك فى العتمة فرأيت غيرها ، ولم تكن أبدا تليق بك ، أما أنا فبعينى الخبيرة أشرت إليها وقلت هى من ترفع عن ظهرك عبء الآلام المنتظرة .

– أى آلام يا أمى ؟

– جروح قلبك ، وصدأ روحك ، هى منْ ستجلوها من حين لآخر .

– نظرتك ثاقبة يا أمى .

– الحمد لله .

سحبا الغطاء على وجهها المضىء ، بعد أن أسبلا الجفنين وعقدا الطرحة البيضاء من أسفل الفك إلى الرأس ، وخرج من الحجرة تاركا أخته معها تسح الدمع بعد أن حذرها .

– لا تسقطى دمعك على وجهها .

قلت « اصعد الآن إلى شقتى لاستريح ..

رحل الموتى منذ عهد بعيد ، وجروح الفقد اندملت ، وما يحدث هو استعادة مكرورة لحدث قديم ، لماذا تطرحه الذاكرة الآن ؟

ماذا يريد منى هذا الليل الطويل ؟

لا أرجو أكثر من العودة ، لايهم أن تكون بانتظارى ، ربما جاءت فى رحلة مبكرة أو حدث خطأ ما فى الرقم أو الحساب ، رقم الرحلة وحساب الزمن ؟

الغياب هو الفقد وأنا قضيت المدة الكافية لتمرين القلب على الجحود

حتى وقع الجمود . فلماذا اللهفة ؟ عام بطولة أدربه على الاستمساك بريحها، بحضورها فى أشياءها المحفوظة فى الأدراج والضلف المغلقة ، وكان يزول ، يمحى بقوة الأيام . الريح ، والحضور ، والذكريات المشتركة ، هل وصلت إلى منتهاها ، ووقع الفقد ؟

كان الرهان فى العودة لا بتعاث الحضور .

فماذا إذا تأخرت أكثر مما ينبغى ؟ أنا ضعيف .. ضعيف ، محكوم بقانون البشر . والنسيان قد يكون نعمة ، والفجيعة هى فى لحظة وقوعها ، وعلى المدى الطويل تخفت ، وتضعف ، ثم تتلاشى ، وتبدأ دورة أخرى من الحياة بدون البشر الذين ألفنا حضورهم » .

البيت المشيد باللبن صار بناء حجريا ، يقيم تماسكه الأسمنت والرمل ، والمدخل حول من الشارع الكبير إلى الشارع الصغير ، حيث الواجهة البحرية ، والحجرة التى فارقت فيها الأم استحالت إلى محل للملابس الجاهزة .

وهناك على الطرف الآخر رأى جسد حماته النحيل . كانت تقف على جانب من باب العائلة تتوارى فى خجلها الطفولى تلم طرف طرحتها على جزء من وجهها الأبيض المشع فى طبقات الظلمة فى هذه الزاوية المغلقة من الشارع الضيق .

تقدم إليها فطالع بسمتها اللطيفة الودود .

كانت تود أن تسأله عنها ، ولكنه بادرها بالإجابة : أجلت الرحلة ، قد تأتى غدا أو بعد غد ، أو ربما بعد أسبوع .

قالت بصوت هادىء : ربنا معاها .

– كتبت لها عنك ، ووصفت تعلقك بها ، وهى من جانبها لاتكف عن السؤال عنك .

– كنت أود لو حضرت السنوية مع باقى الاخوة والأخوات .

ارتبك صوته لأنه تذكر الكتابة عن هذا اليوم بسخرية . لم يكن يسخر منها ، ولكن من الطقس الذى يمارسه الآخرون .

– قصصت لها ما حدث ، وقلت إن حضورى يكفينا معا .. وحكيت لها عن قراءتنا لأجزاء القرآن ، وأننى وهبت لروحك جزئين ، واحد عنى ، وواحد عنها .

– كتر خيرك يا بنى .

وعادت بظهرها إلى الردهة فكأن مصباحا مضيئا انطفأ فجأة .

لم يكن مطلوبا اللحاق بها فى هذه الساعة من الليل .

الكل نيام ، وهو وحيد فى ظلام البلد الغافى .

آب إلى شقته ، تسلق مرتفع الأرض ، ثم قفز الدرجتين الأماميتين ليدفع البوابة الحديدية الصدئة ، تفادى صراخها بقدر الإمكان حتى لايوقظ من بالبيت ، وصعد الدرجات القليلة متحسسا موقع القدمين بحذر معتمدا على سور السلم المنخفض وواجهه الباب معتما ، كئيبا .

كان ينبغى أن يخرج المفتاح ليتعرف عليه ، سيضطر إلى اختبار المفاتيح كلها .

حين أخرجها من جيب السترة وقعت عينه على الدائرتين المضيئتين .

لاشىء مضىء غيرهما .

الأشياء مطموسة المعالم ، سواد فى سواد وحين زام وارتفع هريره تشكلت كتلة الجسد الأسود .

كان يقعى على الدواسة الخشنة ، يحفر بمخالبه فى وبرها مهددا .

لم يعد بالإمكان التقهقر إلى الوراء .

لاسبيل غير الهجوم بضربة قاضية محكمة ، تسقط على الرأس مباشرة.

كان يزوم بغضب فاستجاب إليه وتقمص حضوره تماما .

فوقفا كذكرين شرسين ، كل منهما يتحين الفرصة للانقضاض على الآخر .

لما ارتفع الهرير اندفق النور من شراعة الباب ، وأطل الوجه من القضبان الحديدية . نسى القط لحظة محدقا فى الوجه المطل . كان غائما أول الأمر ، لاتتضح ملامحه بما فيه الكفاية ثم صار يعيد تشكيله ، فبدت سيماؤها ، لاتقبل الشك ، بعدها انطلق عطر فى المكان ، عطر مألوف ، ولكنه يأتى من فجوة عميقة فى الزمان .

واتته قوة غير معهودة جعلته يرتمى على الذيل الكثيف الشعر ، فيحكم الامساك به .

دار فى المساحة المتاحة أمام الباب ليضرب الجسد الحيوانى من جدار إلى جدار ، حتى تدلى الرأس إلى أسفل وانفلت من فروته بينما لايفارقه الاحساس بكتلته بين قبضتى اليدين .

انفتح الباب ليجدها على حالها ، كما يراها فى عودته المسائية ، لفه دفء الأشياء والمكان ، خطفت أنفه رائحتها الأليفة .

شعر أنه لم يغادر مكانه أبدا .

القاهرة – مدينة نصر

أكتوبر ٢٠٠٣



يوسف أبو رية

– مواليد ٢ يناير ١٩٥٥ بمدينة ههيا – محافظة الشرقية.

– درس الصحافة بكلية الإعلام – جامعة القاهرة .

– عمل بعدة صحف ومجلات مصرية، ثم هجر الصحافة ليتفرغ للكتابة الأدبية .

– صدرت له أربع روايات هى : عطش الصبار (١٩٨٩) تل الهوى (١٩٩٩م) – الجزيرة البيضاء (٢٠٠٠) ليلة عرس (٢٠٠٢).

– صدرت له ست مجموعات قصصية هى: الضحى العالى (١٩٨٥) عكس الريح (١٩٨٧) – وش الفجر (١٩٩٣)– ترنيمة للدار (١٩٩٥) – طلل النار (١٩٩٧) – شتاء العُرى (٢٠٠٣) .

هذه الرواية

– يلجأ يوسف أبو رية فى هذه الرواية إلى الأسطورة ولكن بأى معنى ؟
إنها أسطورة المكان الذى يمتلك خصوصية.

ها هنا نجد انبعاثا للإله – القط. هذا الإله (بس) الذى مجده كهنة (ببوسطة) شرق الدلتا فى حقبة استثنائية من العصر الفرعونى، ولأنه ينتمى إلى هذا المكان تحديدا فقد استعاده فى هذا العمل الإبداعى الجديد على هيئة عاشق مغدور، ظلت مقيمة فى بيت الزوجية فى حالة ملتبسة غامضة، أصابت وجدان الزوج المحب بالحيرة، هل هى معه أم أن قلبها معلق بمعشوقها الميت.

رحلة بحث مضنية فى خطين متوازيين عبر تضفيرات من الحكى المسلسل الممتع، الفكة أحيانا والشجى فى أحيان أخرى.

أما رحلة البحث الأخرى فهى جهد دؤوب فى التنقيب عبر طبقات التاريخ المصرى القديم ليصل إلى البداية، وهى نقلة كبرى من القط الإله إلى القط العاشق، أى من الحالة القدسية التى أجلها الأسلاف إلى الميت الذى بعث حيا متحديا عقابيل الأزمنة وطبقات الأرض المتراكمة.

روايات الهلال تقدم

يا قلبى لا تحزن

تأليف

منال القاضى

تصدر : ١٥ مارس ٢٠٠٥